روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

Looloo

13

www.dvd4arab.com

مغامرات "س"

دقات الفزع

المؤسسة العربية الحديثة

المقدمة المعتادة

لم أصبح بعد نجمة لامعة (سوبر ستار) فى عالم الصحافة ..

لكنى ما زلت أحلم ..

لم أتخلص بعد من جنونى وتمردى وجرأتى التى تقارب حد التهور ..

لكنى ما زلت أحاول ..

لم أنهِ بعد امتحانات عامى النهائى فى كلية الإعلام ..

لكن الامتحانات ما برحت تقترب ..

ولم أكتشف بعد سر السيد (س) ..

لكنى أبدًا لن أيئس !

(نسرين فاروق الجبالى) هو اسمى وبرغم تعلقى الطفولى بكيان أبى ، الذى أجّجه فقدى لأمى وأنا فى المهد صبية ، إلا أننى أفضل اسمى الثنائى الذى أذيل به تحقيقاتى الصحفية ، كنوع من المحاولة المستمرة لأن أكون نفسى ..

(نسرين الجبالى) .. هكذا أفضله ..

(هشام القاضى) هو اسم خطيبى الرائد فى المباحث الجنائية ، وهو ما زال يصفنى بالجنـون كلمـا أتيحت له الفرصـة .. المشكلة أنه على قدر وافر من الصواب الذى لا أنكره !

(ألفت همام) هو اسم رئيسة تحرير جريدة (الأربعاء) المستقلة ، وهى تحتضننى وترعى موهبتى الصحفية البكر باهتمام أجهل مصدره ، وإن كان شعورًا مبهمًا يراودنى بين الحين والآخر بأن الأمر ليس بهذه البراءة التى يبدو عليها !

حياتى لا تلخصها سطور مقتضبة كالتى مضت ، إن من كانوا معى منذ قدمت أولى مغامراتى مع السيد (س) يعرفون عنى ـ وعنه ـ أكثر بطبيعة الحال ، لذا فعلى الأصدقاء الجدد إما أن يكتفوا بهذه السطور مؤقتًا ، وإما أن يراجعوا ما فاتهم ـ على أن تكون المراجعة مسئولية كل مَراجع !

موعدنا اليوم مع مغامرة أخرى للسيد (س) ، سر حياتى الأعظم الذى لم أكتشف حقيقته حتى لحظة كتابة هذه السطور (أو ربما كنت أقول هذا فقط من باب تشويق القارئ وراحة دماغى .. من يدرى ؟!!)

السيد (س) .. الرجل الوهم ..

الغامض ..

الموجود بلا وجود ..

والمختفى خلف ستائر العدم السرمدى ..

أين كنا قد توقفنا ؟!

أعتقد أن التسلسل الزمنى يقضى بأن نتوقف فى محطة (دقات الفزع) ..

نعم .. لقد كانت مغامرة أخرى نشرتها فى تحقيق صحفى رفع من قيمة أسهمى فى بورصة القراء كثيرًا ، وسأرويها اليوم بكل التفاصيل التى أهملها التحقيق طبقًا لقواعد الكتابة الصحفية ، والتى حذفها المراجعون لأغراض ما فى أنفسهم قبل مثول الجريدة للطبع ..

هل الجميع على أهبة الاستعداد ؟!

لست فى حاجة بالطبع لأن أقول إن السيد (س) كان معى فى كل خطوة ، وأنه كان يعرف كل شىء ، وأنه كان يجمع خيوط القضية كلها فى قبضته الهلامية ، إلى آخر هذا الحديث الذى أخشى أن يكون فى تكراره شىء من الإملال ..

لكن .. ربما تحسن الإشارة ها هنا إلى أن المايسترو (سليم حجاب) كان .....

لا .. لا .. هذا كفيل بإفساد القصة قبل بدايتها ..

أفضل مايمكن فعله الآن هو الانتقال الهادئ من (المقدمة المعتادة) إلى الفصل الأول ..

تفضلوا معى !

* * *

١ ـ صوت الموسيقى ..

بدأت علاقتى بها ـ وانتهت ـ فى المرحلة الثانوية ..

مثل أى فتاة تقف أمام بوابة المراهقة السحرية كنت حزينة بلاسبب ، سعيدة بلاسبب ، أحب الحياة وأكرهها ، أشعر بأن فى داخلى براكين ثائرة ، قنابل متفجرة ، بارود مشتعل بالتمرد والأفكار ، أريد أن أصرخ من فوق أعلى قمة فى العالم : أنا هناااا ، وأحلق فى السماء دون أن تذوب أجنحتى الشمعية ، ثم أهبط على شاطئ بحر بعيد ، لأنام على نبرات (عبد الحليم) الدافئة ..

مثل أى فتاة على أعتاب عوالم الأنوثة الغامضة اكتشفت فجأة أن أحاسيس من النوع المرهف الرقيق ، تهزنى نغمات جيتار حالم ، أبتسم فى حنان عندما أشاهد فيلمًا رومانسيًا ، أتنهد ـ بينى وبين نفسى ـ وأنا أقرأ قصيدة حب ، إنها المرحلة التى يصبح الدخول إلى قصائد (نزار قبانى) وروايات (إحسان عبد القدوس) وأفلام (عز الدين ذو الفقار) شرًا لابد منه ..

ومثل أى فتاة فقدت أمها فى الطفولة بدأت أعى مدى احتياجى إليها ، وبدأت أفهم معنى حرفى (الألف) و(الميم) بطريقة عملية قاسية ، وبدأت أوجه طاقتى العاطفية لا إراديًا نحو أبى المشغول دائمًا ، المتواجد نادرًا ، وبدأت أبكى كثيرًا وحدى فى المنزل ، أمّا أمام الناس فقد أصبحت انطوائية إلى حد لم أتصور معه نجاحى مستقبليًا كصحفية يقوم نجاحها على علاقاتها الاجتماعية الغزيرة ..

أكثر ما كان يزعجنى فى المدرسة أن تدنو منى فتاة ترتدى نفس ملابسى (قميص أبيض وجوب رمادى وربطة عنق خمرية) ويغزو حب الشباب وجهها لتقول فى مرح :

ـ ما بالك تجلسين وحدك هكذا ؟!

أضطرب ، أتوقف عن مضغ شطيرة الجبن الأبيض بالطماطم التى تعدها لى الدادة (رئيفة) كل صباح ، أعدل من وضع منظارى الطبى فوق عينى وأحاول أن أبدو ودودًا دون جدوى :

ـ لا .. لا .. لاأد .. أدرى !

تقول الفتاة التى يغزو حب الشباب وجهها :

ـ أسبوعان منذ بدأت الدراسة وأنت تختارين هذا الركن لتجلسى فيه وحدك وقت الراحة ، فى الفصل لا تكلمين أحدًا ونادرًا ما نسمع صوتك عندما يسأل مدرس سؤالاً ، بل وتنفردين بطاولة مستقلة لا تشاركك الجلوس فيها زميلة .. لم كل هذا ؟!

ـ لا شىء ... !

لم أنطقها بهذه السهولة طبعًا ، كان الشعور بالسخافة وعدم الثقة بالنفس يلازمنى كظلّى ، فقالت باسمة :

ـ اسمى (رحاب) .. ما اسمك ؟!

ـ (نسرين) ..

ما زالت (رحاب) صديقتى ـ بعد أن زال حب الشباب من على وجهها وترافقنا حتى دخلنا معًا كلية الإعلام ـ تذكر هذه الواقعة القديمة وهى تضحك ملء شدقيها ، وتضرب كفًا بكف وهى تتساءل :

ـ من كان يصدق أن (نسرين) التى لم نكن نسمع لها صوتًا فى المدرسة ستصبح يومًا ما هذه الفضولية المشاكسة المشاغبة التى تملأ الدنيا من حولها حركة وحيوية ؟!

فى هذه المرحلة بدأت علاقتى ـ وانتهت ـ بالموسيقى ..

لم تكن علاقتى بها قبلها تتجاوز الاستماع بغير حماس إلى موسيقى الجيل الحافلة بما لذ وطاب من الطبل والزمر والتصفيق والتهليل إلا فيما ندر ، مع الانغماس الكامل فى نبرات (عبد الحليم حافظ) الدافئة القادمة من غياهب الزمن الجميل الذى أشعر نحوه بـ (النوستالجيا)(*) دون أن أعيشه ، ولم تكد علاقتى بها كعازفة تبدأ حتى انتهت ، والفضل كل الفضل ـ فى النهاية لا البداية ـ يعود لـ (نسمة) !

البداية كانت شعورًا داخليًا ببذرة ما تشق تربة وجدانى ، برعم أخضر يعلو فى خفر وحياء ، كلنا شعرنا بهذا ونحن نعبر فى تلك المساحة الزمنية الحساسة بين طفولة ذاهبة ونضج آت ، كلنا شعرنا بدقات الجرس الخفى تدعونا لأن نفعل شيئًا ، لقد تغير مرأى العالم من حولنا فجأة وأصبح أكثر عمقًا وأقل بهجة ، أصبح لكل شىء معنى مخالف ، بعد آخر ، ها قد أدت الهرمونات ما عليها فى أجسادنا وانطبع ذلك بصورة أو بأخرى على أرواحنا ..

(★) النوستالجيا Nostalgia : حنين غير سوى للماضى أو لاستعادة وضع يتعذر استرداده ..

يعلو الصوت القادم من سراديب المجهول : انهضى ، أنتِ فنانة عظيمة ، ستغير أعمالك وجه الكون وستحفرها الأيام بحروف من ذهب على صخور المستقبل ، ما عليك إلا أن تبدئى .. يملؤنى الصوت القادم نشوة وسرورًا ، لكنى لا أعرف أين البداية ..

أحيانًا أمسك القلم وأكتب عبارات سقيمة أحسها أكثر بلاغة وبيانًا من معلقات الجاهلية السبع ، أحيانًا أمسك بقلم الرصاص وأرسم وردة وشراعًا وشمسًا تهاجر نحوها الطيور وأراها أكثر تعبيرًا من تصاوير (دافنشى) ، وأحيانًا أدندن بلحن أنسى هويته وأعتقد أنه نابع من قلبى الخفاق فأهمس أن ها قد عرفت طريقى ، سأملأ دنيا الغد بالأنغام ، لكنى ما ألبث أن أعود للكلمات ، فالتصاوير ، فالأنغام ، وهكذا دواليك ..

هنا حدثت القصة المعتادة ..

لم يمض شهران على العام الدراسى الذى شهد وجودى فى المدرسة الثانوية الجديدة حتى بدأت الهمسات تسرى بين الطالبات ، استطعت أن استخلص منها ـ فى جلستى منعزلة داخل الفصل وفى ركن الفناء ـ أنها تتعلق بمدرس الموسيقى الجديد الأكثر وسامة من (عمر الشريف) نفسه ..

ـ تفاهة بنات !

قلتها لنفسى فى ترفع وشمم عن هذه الصغائر ، مهما كان وسيمًا فسأظل أرى أبى الرجل الوحيد الذى لاينافس على وجه البسيطة (ظل هذا رأيى بعد خطبتى لـ (هشام) !)

وسارت القصة كما هو معتاد ، ضجيج الطالبات المعتاد بين جدران الفصل المغلق انتهى بالسكون التام والبراءة الخالصة فور انفتاح الباب ، دخل المدرس الجديد تتابعه العيون المتسعة ولم يخل المشهد من همسة هنا همهمة هناك ، توقف أمامنا بابتسامة سينمائية وهو يلقى بتحية الصباح ، وتابعت أنا بنظرات امتعاض آيات الانبهار فوق وجوه الزميلات التافهات ، ثم عدت أمضغ صمتى وأمارس هوايتى الأثيرة فى السمو فوق مستوى الأحداث ..

تحدث المدرس الجديد وقال أشياء لا أذكرها عن فريق موسيقى باسم المدرسة يريد أن يدخل به مسابقات وزارة التعليم ، تطوعت فتيات كثيرات ـ منهن من لا تعرف مفتاح صول من مفتاح الفرج ـ للمشاركة ، فكرت لكنى تراجعت ، لا أريد الاشتراك فى هذا العبث ، صحيح أننى كنت أود تعلم العزف على آلة ما فربما كشف هذا النقاب عن موهبة

موسيقية مدفونة داخلى ، لكنى لن أفعل ذلك حتى لا يقال إننى انهزمت أمام وسامة مدرس يشبه (عمر الشريف) ..

ـ هل منكن من تعزف (الكمان) ؟!

لم تجب أى من الواقفات ، فأعاد المدرس السؤال بصيغة أخرى ..

ـ هل منكن من تريد هذا ؟!

قالت (نسمة) ، وهى فتاة جميلة ، لو كنا نستطيع أن نصف الحية بالجمال :

ـ إنه حلمى يا أستاذ .. إن (الكمان) لآلة رائعة ..

تجاهلها المدرس وهو يشير لطالبة أخرى جالسة سائلاً :

ـ وأنتِ ؟!

تلعثمت الطالبة وسقط قلبها فى حذائها المدرسى الأسود اللامع ، لم تعرف بِم ترد فأعاد عليها السؤال بطريقة أوضح :

ـ ألا تريدين مشاركتنا فى الفريق الموسيقى ؟!

عقدت (نسمة) حاجبيها فى ضيق وغيرة ، رمقتنى بنظرات

تحاشيتها حتى لا أضطرب أكثر وأنا أقف ، لقد كانت الفتاة التى يحادثها المدرس هى أنا !

ـ فى .. إحم .. فى الحقيقة ..

واستجمعت شجاعتى وأنا أقول ناظرة إلى حذائى المدرسى الأسود اللامع .

ـ نعم ..

ـ هل تناسبك آلة (الكمان) ؟!

ـ نعم ..

ـ أعتقد أنك ستبلين فيها بلاءً حسنًا ..

وعاد يتحدث إلى بقية الواقفات متجاهلاً ـ عن غير عمد ـ (نسمة) التى احمرت وجنتاها حتى كادتا أن تحترقا ، وأخذت ترمقنى بتلك النظرات الثعبانية التى أشعرتنى بالضيق ، فأنا لم أفعل بها شيئًا !

بدأت التدريبات فى حجرة الموسيقى الزاخرة بألوان الآلات المختلفة ، أمسكت بآلة (الكمان) ، أسندتها إلى ما تحت ذقنى ، سرت بالقوس القابضة عليه يدى اليمنى فوق صف الأوتار المشدودة ، والنتيجة أبشع نشاز سمعته فى حياتى ..

أخافتنى البداية ، لم تكن مشجعة ، لكن المدرس ألقى نحوى بسمة متفائلة وقال :

ـ لاتتوقعى أن تعزفى سوناتا لـ (بتهوفن) من المرة الأولى !

وبدأ يعاوننى على الإمساك بالآلة بصورة صحيحة ، ويشرح لى مكوناتها وإمكاناتها الصوتية ، ولم أنتبه للهمهمات التى سرت بين بقية الطالبات فى الغرفة لتمتد فيما بعد لخارجها ، همهمات تعرفون معناها قطعًا ، ولم أنتبه كذلك لزوج الأعين الذى يرمقنى من خارج نافذة الغرفة بنظرات ثعبانية تموج بالضيق والغيرة ..

ـ انظرى إليها .. هل تعتقدين أنها تستحق منه كل هذا الاهتمام ؟!

قالت إحدى الواقفات حولها ، فأجابتها (نسمة) :

ـ لاتقلقى .. سأعرف كيف أجعلها تمقت الموسيقى وما يمت إليها بصلة ..

سألت أخرى فى فضول متلهف :

ـ ماذا ستفعلين ؟!

ـ سترين يا فتيات ..

وبرقت عيناها فى مكر شيطانى خبيث ..

بعد عدة أيام كنت قد بدأت أبلو فى العزف بلاءً حسنًا ، وربما كان طريق حياتى سيتغير كليًا لو لم تطل إحدى العاملات برأسها من نافذة غرفة الموسيقى لتنادى :

ـ (نسرين فاروق) ..

ـ ... ؟!

ـ مطلوبة على وجه السرعة فى غرفة حضرة الناظرة .

اتسعت عيناى رعبًا ، ما عساها تريد منى الآنسة (حفيظة) ناظرة المدرسة ، لاحظ أن المعادلة الشهيرة تقول (لقب آنسة + العمل كناظرة × مدرسة بنات = عُقد أكثر ورحمة أقل ... !)

مكفهرة القسمات كعادتها ، عيناها تموجان بشرر الغضب والعصا الخشبية الغليظة فى يدها تنطق بالوعيد ، بعد صمت نجحت به فى تحطيم أعصابى وجعل الدموع تحتشد على بواب الغدد الدمعية ، هدرت فى وجهى كعاصفة :

ـ أنت إذن (نسرين) هانم ..

ابتلعت ريقى فى صوت مسموع ثم أجبت فى فزع :

ـ أجل ..

عادت تهدر :

ـ عظيم .. مبهج .. أنت إذن من لم ينجح أبواك فى تربيتك بطريقة صحيحة .. نكأت قسوتها كل الجراح الهاجعة فى وجدانى فسالت دموعى وحدها دون مجهود ، ولم ترحمنى فأخذت تواصل تحطيمى بالكلمات :

ـ تبكين ؟! لن أصدق دمع الكذب هذا .. هلا أخبرتنى يا هانم ما هذا ؟!

لوحت بورقة فى يدها الأخرى ، فقلت محاولة السيطرة على انفعالاتى الجامحة :

ـ لا أدرى ..

ـ لا تدرين ؟! وتتوقعين منى تصديقك ؟! أليس كذلك ؟! يا لفتيات هذا الزمن الأغبر .. هذا يا مثال البراءة الملائكية خطاب عثرت عليه زميلة لك فى غرفة الموسيقى .. خطاب قمتِ بكتابته وتوقيعه لتخبرى فيه السيد الهمام فارس الأحلام مدرس الموسيقى الجديد بحبك الشديد له ، وغرامك الأسطورى به ، و ...

لم أحتمل سماع المزيد ، هرولت هاربة من أمامها ودمعى يتطاير فى الهواء ، تجاهلت نداءها لى بالعودة ، لم أكن أدرى إلى أين أهرول ، لقد جعلتنى الصدمة عاجزة عن التفكير تمامًا ، ما الذى يحدث ؟! ما الذى يحدث ؟! أهو كابوس ؟!

من بعيد كانت (نسمة) تراقب هرولتى باسمة فى تشف ورضا ..

انتهى الأمر بعدها بنقل المدرس الجديد لمدرسة أخرى ، بناء على طلبه وبتبرئتى من التهمة بعد مضاهاة خطى بالخط المكتوب به الرسالة ، وبابتعادى عن غرفة الموسيقى تمامًا إلى الأبد ، لم أكن حتى أحب المرور من أمامها كأن أرواحًا شريرة تسكنها ..

لم تنته علاقتى بالموسيقى كمستمعة ، وإنما انتهت تمامًا كعازفة بعد أن كدت أن أبدأ ، والفضل كل الفضل يعود ـ فى النهاية لا البداية ـ لفتاة جميلة ، لو كنا نستطيع أن نصف الحية بالجمال ..

فتاة تدعى (نسمة) ..

★ ★ ★

٢ ـ الدخول بالملابس الرسمية ..

الساعة السابعة مساءً ، تأخر والدى عن موعده كما اعتدت !

الهاتف فى المستشفى مشغول دائمًا ، وهاتفه المحمول مغلق كالعادة ، وأعصابى تكاد تتحطم ما بين المرآة أعدل فيها زينتى البسيطة ، والهاتف ، والشرفة حيث أنتظر السيد (هشام) ..

وعندما رأيت سيارة الأخير تظهر عند بداية الشارع مصدرة أصوات بوقها المزعج ، أيقنت أن الدكتور (فاروق) قد فعلها بى ثانية ..

لقد شغله شىء ما عن تذكر أن الليلة موعد احتفالى ـ و(هشام) ـ بعيد خطبتنا ، شىء من عينة مريض يصارع الموت فى غرفة العمليات ، أو حالة طارئة لاتحتمل التأجيل ، أو زائر من منظمة الصحة العالمية يحمل دعوة لحضور مؤتمر فى (الهند) ، أو غير ذلك مما اعتدت سماعه من أعذار

أراها وجيهة لأنه ليس أمامى خيار آخر ، وها هو ذا واحد منها ينجح ثانية فى جعله ينسى احتفالاً خطط له بنفسه ..

نظرت إلى الدعوات الثلاث التى تحمل شعار (دار الأوبرا) فى وضوح : دمدمت بكلمات حانقة لا أذكر منها حرفًا ، ساهم بوق سيارة (هشام) فى الإتيان على البقية الباقية من الحلم فى نفسى فهتفت بضيق كأنه سيسمعنى :

ـ صبرًا .. آتية فى الحال !

وتنهدت متناولة حقيبتى الصغيرة من فوق الأريكة التى تتوسط الصالون ، ثم شرعت أغلق النوافذ والشرفات وأزرار الإضاءة دون أن يكف (هشام) عن ممارسة هوايته المزدوجة فى إثارة سخطى من ناحية ، والارتفاع بمستوى التلوث الضوضائى فى المنطقة من ناحية أخرى ..

لم يكف عن عبثه الطفولى هذا إلا عندما رأى شبحى الأسود يغادر بوابة العمارة المضاءة ، ابتسم فى مرح وأنا أجلس إلى المقعد المجاور له قائلة فى هزل تقريعى :

ـ يشكو ساكن فى الطابق الأخير من أن صوت البوق لايصله بوضوح !

لم يزل مرح (هشام) كما توقعت ، بل إنه ضحك مقهقهًا وهو يضغط البوق فى منتصف عجلة القيادة وهتف منتشيًا بكل حرف ينطقه :

ـ دعيه يستمتع به إذن !

يا للسخف !

مططت شفتى فى امتعاض وانتظرت حتى انتهى خطيبى (المتزن عقليًا) من وصلة القهقهة التى طالت قليلاً ، قبل أن يمسح بكمه الزبد الذى تراكم على طرفى فمه ويسألنى :

ـ بالمناسبة ، أين الدكتور (فاروق) ؟!

لقد أفاق أخيرًا .. هذا جيد على أية حال !

ـ لم يعد من المستشفى منذ غادر فى الصباح الباكر ..

ـ ماذا ؟!

هتف بها (هشام) مستنكرًا ، وواصل استنكاره متسائلاً كأنه يلقى باللوم علىَّ :

ـ ألم يكن هو صاحب فكرة حفل (الأوبرا) ؟! ألم يأتِ بدعوات حفل (ضربات القدر) هذا بنفسه ؟!

دائمًا أعثر على فرصة جيدة للحذلقة ، أشعر أنها تناسبنى مهما كانت الظروف ..

ـ تقصد حفل (دقات الفزع) .. إن ضربات (القدر) هو اسم افتتاحية السيمفونية الخامسة لـ (لودفيج فان بتهوفن) !

ـ هل معنى هذا أننا سنذهب إلى (ضربات الفزع) هذه بدونه ؟!

قالها متجاهلاً نصيحتى ، لكنى أملك عزيمة لا تلين ، وصبرًا لاينفد ..

ـ (دقات الفزع) يا عزيزى !

ثم إنى سألته بدورى :

ـ وهل لديك بديل ؟!

ـ البدائل كثيرة ، نستطيع مثلاً أن نتناول العشاء فى مطعم أنيق على ضوء الشموع الرومانسية ، أو أن نذهب إلى السينما لنشاهد فيلم (ميل جيبسون) الجديد ، أو ...

قاطعت سيل حماسه المتدفق بسؤال خبيث ..

ـ ظننتك تهوى الموسيقى الكلاسيكية الراقية يا عزيزى .. هل أنا مخطئة ؟!

ـ كلا .. لست مخطئة .. ولكن ..

ابتسمت وأنا أرمق حيرته بحثًا عن عذر مناسب أو حجة قوية ، لا أحد فى هذا العالم يستطيع أن يفهمك قدر ما أستطيع أنا .. صدقنى يا (هشام) ..

قلت فى النهاية لأنشله من الغرق فى دوامات تفكير غير مجدٍ :

ـ لنذهب إلى (الأوبرا) ، فمن يدرى ؟! ربما استطاع أبى أن يلحق بنا هناك فور فراغه مما يشغله حتى هذه اللحظة ..

استغرق (هشام) عدة لحظات ليزن ما قلت فى عقله ، فأردفت محاولة إرجاح كفتى :

ـ لن يكون لائقًا أن يذهب إلى هناك فلا يجدنا .. مارأيك ؟!

حسم هذا الأمر بالنسبة له على ما يبدو ، فهز كتفيه كأنه يرفع الراية البيضاء مستسلمًا ، وقال مديرًا محرك السيارة بلهجة المرغم :

ـ حسنًا .. إلى (دقات القدر) .. وبئس المصير !

ومد سبابته ليضغط زر تشغيل المسجل ، فانبعثت داخل السيارة ضجة رهيبة لمطرب من ذوى الحناجر المشروخة

ممن يطلقون على أنفسهم (مطربين شعبيين) ، أولئك الذين يملئون الدنيا صراخًا وزعيقًا فى عربات (الميكروباص) وأكشاك بيع شرائط الكاسيت ..

وفى خضم هذه الضجة ضاع صوتى وأنا أعاود التصحيح لـ (هشام) دون كلل :

ـ (دقات الفزع) يا عزيزى ..

وتسللت بسمة إلى شفتى وأنا أرمقه يتمايل طربًا مع مزاجه الموسيقى الحقيقى ، دون أن يمنعنى هذا من التكرار الخافت همسًا :

ـ (دقات الفزع) !

★ ★ ★

سأله أبى يومًا :

ـ مارأيك فى (كوساكوف) يا (إتش) ؟! « هكذا يناديه أبى على سبيل التدليل الأبوى . »

وجد (هشام) نفسه فى المأزق المعتاد ، أن يسألك والد خطيبتك عما لم تسمع به من قبل ، فتحار فى الإجابة للحظة قبل أن تحسم أمرك قائلاً :

ـ رائع .. ومن يكرهه ؟!

الاحتمالان متساويان فى هذه الحالة ، إما أن يعبس حموك المستقبلى لينفجر فى وجهك بمحاضرة عن مضار هذا الـ (كورساكوف) ، وإما أن يفتر ثغر الرجل عن بسمة أبوية راضية ، ويربت على كتفك قائلاً فى إعجاب :

ـ صدقت يا ولدى .. ومن يكرهه ؟!

وتكتشف بعدها أن الـ (كورساكوف) ليس اسم دواء لداء عضال ، وليس ماركة مسجلة لماكينة رى مستحدثة ، وليس لقب ساحر إفريقى فى أدغال (نيجيريا) ، وإنما هو اسم موسيقار روسى ينتمى للمدرسة الرومانتيكية !

هل تملك بعدها إلا أن تنغمس ـ ولو على سبيل الإدعاء ـ فى عشق الموسيقى الكلاسيكية حتى النخاع ؟!

★ ★ ★

بدا كأمير قادم من عالم الأحلام الأسطورى وهو يفتح لى باب السيارة بنفسه على سبيل الالتزام بقواعد (الإتيكيت) ..

الحلة (السموكن) الفاخرة السوداء ، تصفيفة الشعر ، الذقن الحليق ، الشارب المشذب ، العينان الضاحكتان ، رائحة العطر الرجالى المميز ، والأهم من كل هذا ، بسمته الطفولية ..

ـ تفضلى بالنزول يا أميرة الكون ..

هل حقًا كنت أصلح للقب (أميرة) ؟!

صحيح أننى كنت أرتدى ثوبًا مسائيًا محتشمًا يصلح للمناسبات الخاصة ، وارتديت فوقه معطفًا من الفرو لأقاوم به لمسات الشتاء الراحل مفسحًا المجال لبراعم الربيع التى مازالت تتفتح ، ومن أذنى تدلى زوج الأقراط الماسية التى ورثتها عن والدتى رحمها الله ، وشعرى القصير صففته تبعًا لصورة أعجبتنى عند مصففة الشعر التى أتعامل معها ، أضف إلى هذا بعض الزينة الخفيفة ، لكن كدت أتعثر فى خطواتى فوق الحذاء ذى الكعب المرتفع الذى لا أحبه ، وكاد يزيد الطين بلة عدم اعتيادى على الخطوات الضيقة داخل الأثواب النسائية ..

أى أميرة للكون أصلح أن أكونها بعد وقد انكفأت على وجهى كبلهاء مع مرتبة الشرف ؟!

أنقذنى استنادى السريع على ذراع (هشام) الذى قاوم رغبته فى الضحك بينما زفرت أنا فى ضيق وقلت :

ـ تبًا لهذه الملابس الرسمية ، إنها غير مريحة بالمرة !

قال باسمًا وهو يعاوننى على اعتياد المشية الجديدة :

ـ تقاليد (الأوبرا) تمنعنا من الدخول بغيرها !

... كأننى لا أعلم !

اتجهنا من المرآب نحو مدخل الدار الزجاجى ، وجدت نفسى وسط خضم من البشر فى حلل فاخرة وأثواب براقة ، وبجوار المدخل انتصبت لافتة إعلانية كبيرة تحمل الاسم الذى لا أفهم مغزاه حتى تلك اللحظة ..

دقات الفزع

رائعة المايسترو (سليم حجاب) الجديدة

والخلفية عبارة عن تكوين يجمع عدة آلات موسيقية ، وفى الجانب صورة طولية بالحجم الطبيعى للمايسترو الشهير بشعره الأبيض الطويل كأنه قطن لم يغزل بعد ، ووجهه ذى القسمات الحادة والتجاعيد البارزة ، وعينيه الزرقاوين ، مرتديًا الحلة السوداء بسترتها الطويلة ذات الذيل المفروق وممسكًا فى يده بعصا القيادة ، وهناك بقعة ضوئية مسلطة عليه من كشاف مرسوم فى قمة اللافتة ..

حتى الدعاية ها هنا تتمتع بلمسة من الرقى الكلاسيكى العتيد ..

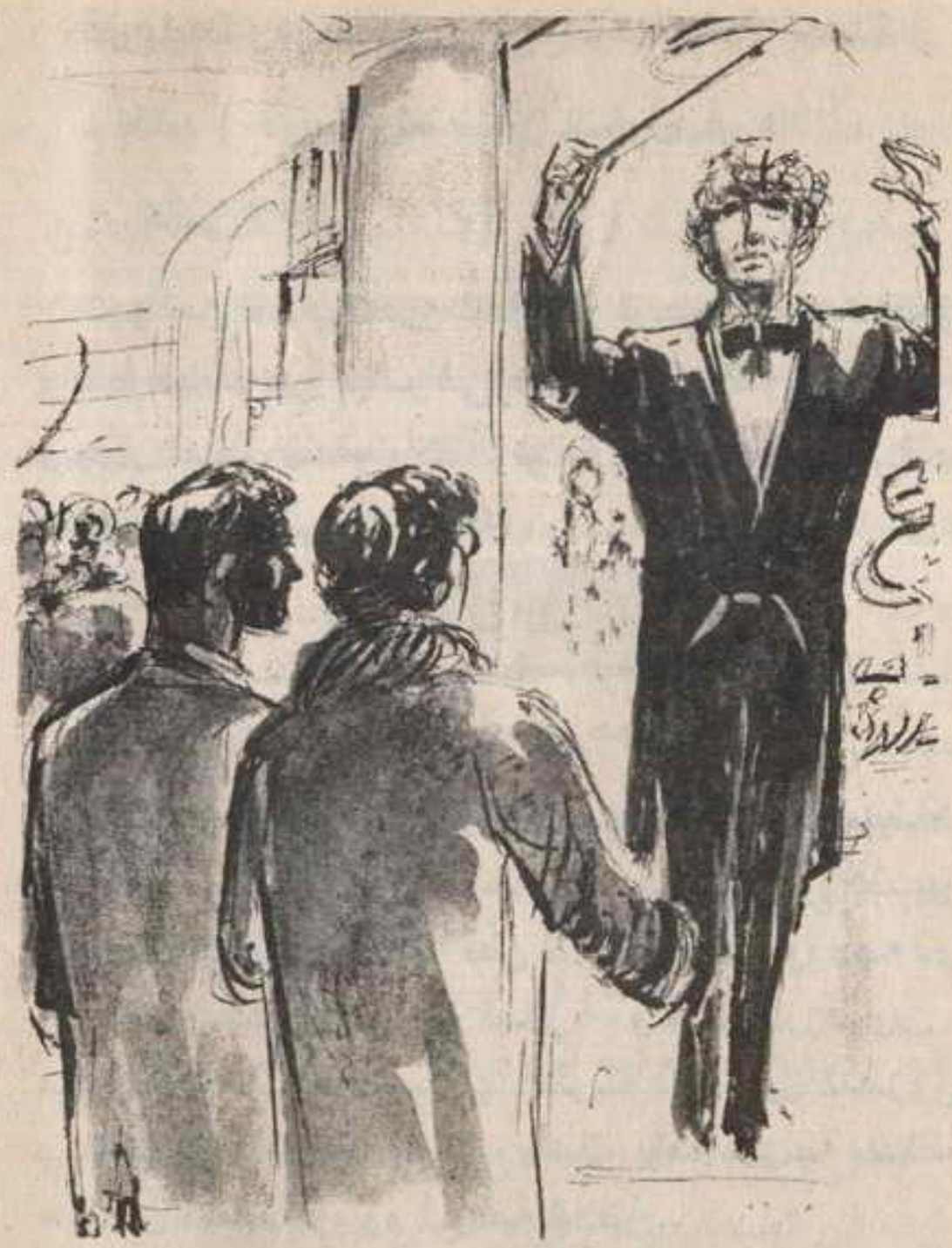

ويجوار المدخل انتصبت لافتة إعلانية كبيرة تحمل الاسم الذى لا أفهم مغزاه حتى تلك اللحظة .

أخذت أدور بعينى بحثًا عن وجه يشبه وجه أبى فى بحر البشر الأرستقراطيين ـ هكذا بيدون على الأقل ـ من حولى ، لم أكن قد فقدت الأمل كليًا فى قدومه بين لحظة وأخرى قبل أن يقول (هشام) ناظرًا فى ساعة يده ذات الإطار المذهب :

ـ إنها الثامنة والربع ، سيبدأ الحفل بعد أقل من ربع الساعة !

كان معنى ماقال واضحًا مثل شمس النهار ، علينا أن ندخل لقاعة العرض فورًا ، وعلىّ أن أفقد الأمل فى حضور أبى الآن تاركًا أعباءه الطبية التى لاتنتهى ..

تماسكى يا (نسرين) وحذار من أن تفسد دمعة شاردة كحل عينيك ، لم تعودى طفلة ، أنت الآن فتاة ناضجة عليها أن تواجه قدرها الأسرى بتفهم وحسن تقدير ، ثم إن الأمر ليس مأساة كما تحاولين تصويره لنفسك .

هذا ـ وغيره ـ ما كنت أردده بينى وبين نفسى وأنا أخطو فوق السجاد الأحمر الأنيق داخل البهو المفضى إلى قاعة العرض المسرحية ، هذه دار (الأوبرا) بكل فخامتها ورونقها وسحرها الأنيق ، اللوحات الفنية والمجسمات التجريدية على وبين الجدران اللامعة ، الثريا الهائلة الحجم المتدلية من منتصف السقف العالى ، وبحر الحلل (السموكن) والأثواب

المسائية مازال يتدفق ، الأحاديث كلها تدور همسًا وانعكاسات الضوء فوق المجوهرات التى تتزين بها السيدات تكاد تعمى بصرى ..

ـ فكرى جيدًا ، هذه فرصتنا الأخيرة لكى نحول مسار السهرة ..

قالها (هشام) فى أمل ، وقد ضايقه الجو المفتعل هذا ، مازال خطيبى (ابن بلد) يمقت التظاهر والعنجهية وهما متوفران بشدة ها هنا ، أما أنا فلم يكن يشغل عقلى لحظتها سوى أمر واحد ، بالأحرى أمنية واحدة ، فقلت :

ـ ربما أتى أبى فى أى لحظة !

صمت محنقًا ، كادت أصابعه تمتد نحو علبة سجائره لكنه تذكر فى اللحظة الأخيرة أن التدخين ممنوع بأمر لافتة صريحة ، فابتلع حنقه وحاول أن يبتسم وهو يقول :

ـ سوف أذهب إلى دورة المياه ..

قلت فى تلميح خفى :

ـ بقى أقل من عشر دقائق على بداية العرض ..

اتسعت ابتسامته وهو يقول فى مرح مصطنع :

ـ ومن يستطيع ألا يلبى نداء الطبيعة ؟!

قرأ فى عينى فهمى التام لدافعه ، فقال وهو يبتعد بالفعل :

ـ لن أغيب أكثر من خمس دقائق ، ربما أقل !

تنهدت وأنا أتابعه ببصرى حتى غاب فى الزحام الأرستقراطى المظهر ، مازال (هشام) طفلاً كبيرًا تستحوذ لعبة قاتلة اسمها (السجائر) على اهتمامه وولعه ، فإن لم يستطع ممارستها علنًا لظروف تتعلق بالآداب العامة مارسها وحيدًا فى الخفاء داخل دورة المياه !

كل الرجال أطفال كبار ، التوقيع (نسرين الجبالى) !

تشاغلت بالتفكير فى ألف موضوع وموضوع لكن الوقت مر ببطء الإبل ، لم يكن باب قاعة العرض قد فتح بعد عندما تناهى إلى مسامعى صوت نغمة أعرفها لأغنية غربية شهيرة .. إنها النغمة الخاصة برنين هاتفى المحمول ..

دق قلبى ، هأنذا قد تذكرتنى أخيرًا يا والدى البعيد ..

أسرعت أبحث عن الجهاز الدقيق داخل حقيبتى الصغيرة ، أمسكته بيد مرتعشة وخفقان قلبى المتزايد قد أنساتى النظر فى رقم المكالمة الواردة على الشاشة ..

ـ لماذا تأخرت ؟!

قلتها فى رنة عتاب فور ضغطى لزر (قبول المكالمة) ، لا أعرف ما هو سر يقينى لحظتها بأن أبى هو المتكلم ، لقد كنت مخطئة على كل حال ..

ـ مساء الخير يا صغيرتى !

زادت نبضات قلبى إلى حد جنونى ، استغرق الأمر عدة لحظات قبل أن أستجمع طاقتى الكلامية وأطرحها فى سؤال من حرفين :

ـ من ؟!

.. كأنى لم أعرفه من اللحظة الأولى !

من يمكن أن يكون صاحب الصوت الأجش الذى يبدو كأن صاحبه يتعمد تغييره ؟!

من ينادينى بـ (صغيرتى) إلا أبى وهو ؟!

من يتحدث بهذه الرنة الساخرة اللامبالية سواه ؟!

ـ لم أتأخر ، مر أسبوعان فقط على لقائنا الأخير فى (الإسكندرية) !

سألت وصوتى يرتعش من جراء المفاجأة :

ـ كيف .. ع .. عرفت هذا الرقم ؟!

لم يكن قد مضى على تشغيلى لخط هاتفى المحمول سوى يومين فقط ، ولم أكن قد أعطيت رقمه سوى لأقرب المقربين ، لذا فقد كانت الدهشة حقًا طبيعيًا لى ..

ـ السيد (س) يعرف كل شىء يا صغيرتى ، ألم تعتادى هذا بعد ؟! إننى حولك ، أقرأ أفكارك وأسكن خيالك الواسع كالمحيط ..

صمت ، ازدردت لعابى وأنا أحدق فى نقطة بعيدة بعينها ، بينما واصل هو :

ـ أنا أعرف أنك الآن فى دار (الأوبرا) لحضور حفل (دقات الفزع) .. لقد اعتدت هذه الأمور وأظنها لا تثير دهشتك الآن !

نظرت حولى كأننى أخشى أن أكون مراقبة ، ثم تقدمت عدة خطوات نحو الهدف ..

ـ لعلك اعتدت أيضًا أن ظهورى مقترن بحدوث كارثة إما وقعت ، وإما بصدد الوقوع ..

هل يكون ذلك الرجل الذى لا أرى سوى ظهره ، والذى يتحدث بصوت خفيض فى هاتفه المحمول هو السيد (س) ؟! خطوات قليلة أخرى وأعرف ..

ـ لقد اعتدت أيضًا أن السيد (س) لا يعطى إجابات ، وإنما هو يطرح علامات استفهام تنتظر من يأتى إليها بالإجابات التائهة .. أليس كذلك يا صغيرتى ؟!

ـ أنت ..

هتفت بها وأنا أهوى بكفى على كتف الرجل المتحدث فى هاتفه المحمول كأننى مخبر يلقى القبض على (مسجل خطر) ، فوجدت عينين تطفحان بالغضب تستديران نحوى وصاحبهما يهتف فى غلظة :

ـ أفندم !

ـ آسفة ، لاشىء ، ظننتك شخصًا آخر ..

واستدرت فى سرعة عائدة من حيث أتيت وقد تصببت جبهتى بعرق الإحراج ، بينما تعالت ضحكة السيد (س) عبر جهاز هاتفى المحمول ، وقال من بين قهقهاته :

ـ لن تعثرى علىّ بهذه السهولة ياصغيرتى المشاكسة ...

إنه يراتى إذن ، إنه حولى دون أن أستطيع رؤيته .. واصلت التلفت حولى باحثة عن خيط يقودنى إليه دون جدوى ، بينما تابع هو :

ـ إننى النسخة المعدلة من (شبح الأوبرا) .. لو كانت الهواتف المحمولة قد اخترعت فى القرن التاسع عشر لاستطاع (إريك) أن يتواصل مع (كريستين) بمنتهى السهولة ، دون الحيل الطفولية التى لجأ إليها (جاستون ليرو) لجعل الأمور منطقية ..

لم أعرف عم يتحدث ، كل معلوماتى أن (شبح الأوبرا) ، هو اسم عمل أدبى رفيع ـ تحول إلى أوبرا طبقت شهرتها الآفاق ـ لم تتح لى الظروف أن أقرأه بعد ، ليس هذا ما جعله يتحدث إلىّ الآن على أية حال ، لقد عودنى أن ظهوره دومًا مقترن بحادث إما وقع وإما سيقع ، وهذا ما قاله بنفسه الآن ..

ـ ماذا حدث هذه المرة ؟!

سألته وقد فقدت الأمل فى العثور عليه وسط الزحام إن كان حولى ها هنا بالفعل ، فأجابنى بجدية لم تخل من مسحة السخرية اللامبالية الملازمة لنبراته كأنها ظلال لها :

ـ ما حدث لم يحدث ، بل سيحدث !

وصمت قبل أن يضيف :

ـ الليلة ، وبعد قليل ، سيفنى الخلود ..

ـ ... !

ـ أما الدقات ، فلن تفزع أحدًا سواه ..

سألته مقطبة فى غير فهم وأنا أعتصر الجهاز بين أصابعى اعتصارًا :

ـ سوى من ؟!

ـ الشبح .. (شبح الأوبرا) !

ـ لا أفهم ..

ـ ستجدين كل الإجابات التى تبحثين عنها عنده ..

ـ من ؟! الشبح ؟!

ـ المايسترو (سليم حجاب) بنفسه !

* * *

٣ ـ المايسترو ..

أضرم السيد (س) النيران فى فضولى ـ الأنثوى أولاً والصحفى ثانيًا ـ ثم أغلق السماعة ..

تركنى أواجه أسئلته وحدى كالمعتاد ، وضغنى على بداية طريق مظلم دون أن يناولنى مشعلاً أستضىء به كما يفعل فى كل مرة ، اللهم إلا خيطًا رفيعًا يكاد لا يبين من ضوء خافت ..

إن كل الإجابات تكمن فى جعبة المايسترو (سليم حجاب) !

ومن أين لى بهذه الجعبة الآن ؟!

إننى لا أعرف عنه الكثير ، مجرد اسم ووجه شهيرين يطلان عبر الصفحات الدورية وشاشات الإعلام بين وقت وآخر ، موسيقار ومايسترو فى أوركسترا دار (الأوبرا) السيمفونى .. لا أكثر من هذا ولا أقل ..

ربما يعود هذا إلى قلة استيعابى للموسيقى الكلاسيكية بمدارسها ، قلة تصل إلى حد الصفر أو ما دونه ، وهو

ما يناقض ولع أبى الشديد بها إلى حد العشق أو ما يعلوه ، حتى إنه يقتنى مكتبة كاملة من أسطوانات الليزر لكل المصنفات العالمية التى تحمل أسماء أعلام هذا الفن الرفيع ، وهى مكتبة كونها حجرًا حجرًا من رحلاته العلمية الشتى حول العالم ..

نعم ، لست من الأرواح الهائمة فى سماوات (بتهوفن) و (موزارت) و (شوبان) و (ليست) و (تشايكوفسكى) و (فردى) وغيرهم من العباقرة ، وهو اعتراف لا أخجل منه بقدر خجلى من الاعتراف بعدم فهمى لحرف من الأبجدية اليابانية ، أو للوحة من تجريديات (بيكاسو) المعقدة ، أو لقصيدة حداثية ، أو لما يجرى على الساحة السياسية العربية !

بقى أقل من خمس دقائق ويبدأ الحفل ، ها هى ذى أبواب المسرح تفتح أمام الجماهير الأنيقة ، و (هشام) لم يعد بعد ، هل هذا وقت مناسب يا سيد (س) للغز من ألغازك ؟!

ماذا أستطيع أن أفعل الآن ؟!

وهل أمامى حل آخر ؟!

اندفعت بين الجموع الواقفة ، تناهت إلى أذنىَّ اللتين استحالتا آلات استشعار دقيقة قادرة على التقاط دبيب النمل فى ورشة نجارة بعض الحوارات الجانبية ..

- هل قرأت ما كتبه ناقد شهير عن (سليم حجاب) ؟! إنه يقول إن نغماته تسطر تاريخًا جديدًا ومتجددًا للموسيقى الكلاسيكية ..

- (بلهجة انبهار أحمق) ؟! إلى هذه الدرجة ؟!

- إنه أقل ما يستحق من وصفه الأوروبيون بـ (بتهوفن المصرى) ..

- (بنفس الانبهار الأحمق) هل وصفوه بهذا فعلاً ؟!

- يقولون إنه يشبهه فى كثير من الملامح الجسدية والنفسية والاجتماعية ، وهو بالفعل فظ وعنيف وأميل إلى العزلة والجنون كما كان (بيتهوفن) قاسى الكثير فى مستهل حياته حتى انفتحت له أبواب الشهرة والسطوع فجأة ، بل ويشاع عنه أنه يعانى الصمم مثله أيضًا ..

- (المزيد والمزيد من الانبهار والحمق) غير معقول !!

- وهو مثله أيضًا يمقت كل ما يمت للصحافة والانتشار بصلة !

بداية مشجعة !

واصلت طريقى بين الجوع ، أراهن على أن (هشام) سيتشيط

غضبًا عندما يعود ولا يجدنى بانتظاره ، إنه يستحق عقابًا كهذا على أية حال ما دام مصرًا على التدخين برغم أنفى وأنف القائمين على النظام ها هنا !

استمرت أذناى تلتقطان المزيد من الحوارات الجانبية فى طريقى للافتة هناك !

ـ (دقات الفزع) .. يبدو اسمًا غريبًا لسيمفونية من عالم (سليم حجاب) الرومانسى ..

ـ لهذا ينتظرها الجميع بفارغ الصبر منذ أكثر من عامين ، اعتكف فيهما الموسيقار الألمعى ليصوغها ..

ـ سيتخلى فيها عن نمطه المعتاد إذن ؟!

ـ لا أحد يدرى ، الليلة موعد عزفها لأول مرة وهو ما يفسر الزحام الرهيب من حولنا !

يتدخل صوت ثالث :

ـ سمعت أن الموسيقار قد أعلن أن هذه السيمفونية بالذات ستمنحة ما يصبو إليه من خلود فنى ، إذ ستحمل من روحه ووجدانه ورؤاه وفلسفاته ما يجعلها تعلق بآذان محبيه كالوشم إلى أبد الآبدين ، يقول المتكهنون إنه سيبثها إحساسه بكل

مفردات الحياة من بشر وطير وحيوان وشجر وأزهار وخلافه ، كل هذا تحت مظلة واحدة ، أو فى لحظة واحدة ، هى الفزع ؟

ـ يا لها من فكرة !

اللافتة تقترب ، أرى بوضوح السهم المرسوم فوقها وبأسفله كلمة (كواليس) مع تنبيه ببنط صغير لا ينبغى أن ألتفت إليه كثيرًا (للعاملين فقط) !

لا يوجد حراس أو رجال أمن ، إنهم يثقون بجماهير (الأوبرا) أكثر من اللازم ..

حوار أخير آت من بعيد أسمعه بوضوح كأننى قطة ..

ـ ولكن الاسم .. أليس صارمًا قليلاً ؟!

ـ هنا تكمن العبقرية ، بقدر ما تصدم المتلقى بقدر ما ترسخ فكرتك فى أعماق لا وعيه ..

ـ يقولون إنه استوحاه من استهلالية (بيتهوفن) الشهيرة (ضربات القدر) ليثبت الصلة الروحية المزعومة بينهما !

ـ إشاعة مغرضة أخرى ، لقد قال الرجل بنفسه ـ فى واحد من اللقاءات الصحفية النادرة معه ـ إن (دقات الفزع) اسم استوحاه من الوجدان الشعبى المصرى الصميم الذى ارتبطت

فيه الدقات والإيقاعات العالية الرتيبة بالخوف من شيء ما ، مثل دقات الزار ، أو حلقات الدروشة الصوفية ، أو دقات (الهاون) يوم (سبوع) المولود المتزامن مع ختانه ، وما يسببه ذلك فى أعماق ذاكرته من ألم مرتبط بفزع غير مبرر من المجهول ، و ...

واحتوانى الممر الخالى المفضى إلى الكواليس بعد أن تأكدت من أن أحدًا لم يرنى ..

الممر قصير ، لهذا اجتزته بسرعة ، وقلبى ينبض بشدة خوفًا من أن يرانى أحد ، لكن العملية تمت بمنتهى السهولة كأن كل شيء معد مسبقًا ..

مشيت على أطراف أصابعى غريزيًا ، إنه الخوف الأبدى اللازم لكل ذنب نقترفه .. ومن قال إن التسلل إلى كواليس دار (الأوبرا) يعد ذنبًا ؟!

الإجابة فى كلمة واحدة : الغريزة !

قادنى الممر إلى مفترق طرق ، أو للدقة مفترق بين طريقين ، أحدهما ينتهى بستار أحمر على مسافة قريبة منى ، والآخر يؤدى إلى عدد من الأبواب المتراصة على جانبى ممر جانبىٍ لا يزيد طوله على الممر الذى اجتزته من فورى ،

أستطيع رؤية هذا بوضوح على الرغم من الضوء الشحيح الصادر من المصابيح الجدارية حولى ..

علىّ أن أختار بسرعة ، أى الطريقين أسلك ؟!

ترى هل عاد (هشام) و ...

كلا .. ليس هذا وقته بالمرة ، سيكون هناك متسع من الوقت لاحقًا لكل التفاهات الصغيرة التى تجعل لحياتى معه لونًا وطعمًا ..

طرحت السؤال نفسه على نفسى من جديد ، أى الطريقين ؟!

الطريق المنتهى بالستار الأحمر يفضى لكواليس المسرح لا ريب ، ولا بد أن أفراد الأوركسترا متواجدون فوق الخشبة الآن ، بقيت دقائق معدودة ويبدأ العزف ، والمشكلة الثانية تكمن فى ما يختفى وراء الستار ، ربما وجدت فريقًا من رجال الأمن أو ـ فى حالة أفضل ـ من سيتحمس بشدة لاستدعاء أحدهم ، وسيكون على وقتها إيجاد مبرر حسن لوجودى فى موقع كهذا !

يبدو الطريق الثانى ممهدًا أكثر ، وآمنًا أكثر وأكثر ..

حسمت أمرى واتخذت طريقى نحو الأبواب البيضاء المغلقة على أطراف أصابعى من جديد ، ثم .. كليك !

لا عليكم ، إنه كعب حذائى الأيمن قد انكسر !

سحقًا لهذه الأحذية ذات الكعوب العالية ، إنها ابتكار فاشل بكل المقاييس !

إنها الغريزة من جديد تلك التى جعلتنى أتلفت حولى خشية أن يكون الصوت قد نبه أحدًا ، لكنى وجدت الفراغ مازال محدقًا بى ، وساورنى مجددًا الإحساس الغامض بأن كل شىء معد مسبقًا ..

متغلبة بصعوبة على الضيق الذى اعتراني انحنيت أخلع الحذاء ، رفعته بيدى ووضعته تحت إبطى ثم واصلت المسير كالبطة العرجاء ، ضايقنى هذا حتى كدت أنفجر ..

لقد فسدت الليلة تمامًا ، شكرًا جزيلاً أيها السيد (س) !

عند الباب الأول توقفت ، ترددت فى فتحه برغم اللافتة الصريحة فوقه ، (المايسترو) هى الكلمة الوحيدة التى كتبت عليها ، معنى هذا أننى فى المكان المناسب لمعرفة جزء يسير من السر الذى ألقاه السيد (س) بين يدى وذهب ، ماذا انتظر إذن ؟!

ألا يحتمل أن يكون بالداخل .. أعنى (المايسترو) بالطبع ؟!

كلا .. من المفترض أنه الآن خلف الستار الآخر يستعد قبل

اللحظات الأخيرة لمواجهة جمهوره فوق خشبة مسرح (الأوبرا) ..

وما الذى أدراني ؟! ألا يمكن أن يكون بالداخل حتى ينادوه ؟! ومن أين لى أن أعرف بطقوس هؤلاء الفنانين المجانين قبل عرض أعمالهم ؟!

تبدو فكرة الطرق على الباب أولاً وجيهة من عدة أوجه ، أبسط هذه الأوجه استبعاد وجوده بالداخل إذا لم يرد !

ضممت قبضتى ورفعتها استعدادًا للطرق بخفة فوق الباب ، عندما ارتفع الستار فى نهاية الممر البعيد ليظهر من تحته حذاء أسود لامع ، وهنا لم يكن أمامى مجال للحظة من التفكير أو التردد ..

لقد امتدت يدى بسرعة البرق نحو المزلاج ـ الذى طاوعنى منفتحًا لحسن الحظ ـ واندفعت بجسدى داخل الغرفة ثم أعدت الباب لوضع الانغلاق وأنا ألهث ، غير عابئة بكون أحد داخلها أو لا ..

ولحسن حظى ـ كلاكيت ثانى مرة ـ لم يكن أحد بداخلها ..

لا (المايسترو) ولا أى امرئ سواه ..

كانت غرفة صغيرة تضم سريرًا غير مرتب ، ومكتبًا

تناثرت فوقه أوراق (النوتات) الموسيقية الشهيرة ذات الأسطر الخمس والرموز الموسيقية المعروفة فوقها بدءًا من (مفتاح صول) إلى الـ (تافاتى فى تاتى) ! وجهاز (فونوغراف) قديم أظنه غير صالح للاستعمال وبجواره مسجل (هاى فاى) حديث ، بالإضافة إلى حقيبة سوداء تحمل الشكل المميز لآلة (الكمان) ، وحلة (سموكن) سوداء ذات سترة طويلة بذيل مفروق معلقة فوق مشجب ، وصورة شخصية لـ (بيتهوفن) بجوارها صورة أخرى للمايسترو (سليم حجاب) الشهير ، والصورتان معلقتان فوق الجدار ..

المكان ـ على ما فيه من لمسة فنية ـ يتمتع بنوع من الفوضى يليق بفنان ملهم ..

هل أبدأ إذن فى البحث عن المجهول ؟!

مازلت أذكر ما قاله السيد (س) ، كلماته ترن فى عقلى كأجراس الكنيسة المعلقة ..

(الليلة ، وبعد قليل سيفنى الخلود) !

(الدقات لن تفزع أحدًا سواه) !

عم سأبحث فى ضوء عبارات جامعة مانعة كهذه ؟!

مهلاً .. هناك صوت خطوات تقترب ..

ليست خطوات فحسب ، إنه صوت شخص يتحدث ..

شخصان يتحدثان ، يتبادلان الحديث لو أردنا الدقة ..

استدرت أحدق فى الباب بعينين التهمهما الرعب ، والأصوات مع اقترابها تتضح ..

ـ إنه لم يفعلها من قبل !

ـ ربما شغله شىء ما ..

ـ لقد كان معنا حتى السادسة لنفرغ من (البروفة) النهائية ولم نجده بعدها ..

ـ ألم تبحثوا فى غرفته من قبل ؟!

ـ بلى ، فعلنا .. ولكن زيادة فى الاحتياط سنبحث مرة أخرى !

ـ ستثور ثائرة الجمهور لو لم يظهر فى الحال ، أنت تعلم ولع جماهير (الأوبرا) بدقة المواعيد ..

ـ عسى ألا يكون قد أصابه مكروه ..

واصل الرعب التهام عينى وأنا مستمرة فى وقفتى أمام الباب ، ندت عنى شهقة مكتومة عندما قرعه أحد الرجلين بقوة هاتفًا :

ـ سيد (سليم) ، أأنت بالداخل ؟!

ماذا سأفعل ؟! أين يمكن أن أختفى فى علبة (السردين) هذه ؟!

ـ سيد (سليم) .. إنها الثامنة والنصف ، المفروض أن يكون الستار قد ارتفع الآن ..

ماذا سأفعل ؟! كن معى يا حسن التصرف !

ـ سيد (سليم) ..

وكادت عيناى تنفجران بالرعب عندما أخذ مزلاج الباب ينخفض أمامهما ببطء ..

★ ★ ★

هى حيلة سينمائية قديمة ومستهلكة أكل عليها الدهر وشرب وتجشأ ، انتقدتها بنفسى فى كل فيلم ـ قديمًا كان أو حديثًا ـ شاهدته وشككت فى مصداقيتها ـ الحيلة ـ ووضعت ساقًا فوق ساق متشدقة بأنها وسيلة أخرى يستخف بها المخرج بعقول مشاهديه الأذكياء ..

لكنى لم أكن أعلم أنها قد تفلح على أرض الواقع الملموس ، ولم أكن أتخيل أننى سألجأ إلى ما استخففت به من قبل برغم أنى كثيرًا ما أفعل ، وهى واحدة من عاداتى الشخصية السيئة التى أحار لتغييرها نحو الأفضل ..

لقد انفتح الباب ، وأطل الرجلان عبره ليريا الغرفة خالية ، فالتفت أحدهما للآخر قائلاً بلهجة أسف :

ـ ليس هنا ..

قال الآخر مهونًا :

ـ لقد توقعت هذا .. هلم إلى المسرح ربما كانوا قد وجدوه ..

بينما كنت أختفى أنا خلف الباب المفتوح منكمشة على نفسى أكاد أختنق من فرط كتمانى لأنفاسى داخل صدرى ، حتى انغلق الباب أخيرًا فتركت لأنفاسى العنان واستغرقت فى حفل لهاث صاخب ..

وبدأت أفهم مايجرى جزئيًا : إن المايسترو (سليم حجاب) مختف ، وهم يبحثون عنه لبدء العرض دون جدوى منذ السادسة ..

هذه بداية جيدة ، وإن كنت أرى أنها نهاية لا بأس بها كذلك !

ماذا يمكن أن أفعل الآن ؟!

أفتش الحجرة الأضيق من أفقى عندما أغضب ؟!

عم سأبحث ؟! وماذا يمكن أن أجد ؟!

أعود إلى (هشام) الذى قد يطلق رصاصة فى منتصف جبهتى لو رآنى الآن ؟!

أترك الأمور بعد أن وصلت إلى هذا الحد ؟!

مستحيل بالطبع ..

لحظة ، هناك رابطة ما تنشأ فى ذهنى ، ألم يقل السيد (س) إن الخلود سيفنى ؟!

و ....

(.. هذه السيمفونية بالذات ستمنحه ما يصبو إليه من خلود فنى ..) !

معنى هذا أن السيد (س) قد أشار إلى مقتل المايسترو (سليم حجاب) الليلة .. معنى هذا أن سبب اختفاء المايسترو (سليم حجاب) هو أنه قد قتل !

رائع ، ولكن أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

سأفتش عن إجابات لهذه الأسئلة هنا .. ولنبدأ بـ ...

فجأة ارتطم شىء ما بشىء ما ، ودوى هزيم الرعد فى قلب الغرفة وفى قلبى :

ـ من أنتِ ؟! وماذا تفعلين ها هنا ؟!

وبعد أن أخذت حيزًا زمنيًا ضئيلاً لا يكاد يكفينى لأنتفض فزعًا استدرت نحو الباب ، مصدر الارتطام وهزيم الرعد ..

ولدهشتى التى كانت بلا حدود رأيت المايسترو (سليم حجاب) ـ بنفسه وشحمه ولحمه ـ واقفًا ينظر نحوى فى غلظة ..

أو هو غضب بلا حدود !

★ ★ ★

ولدهشتى التى كانت بلا حدود رأيت المايسترو (سليم حجاب) ـ بنفسه وشحمه ولحمه ـ واقفًا ينظر نحوى فى غلظة ..

٤ـ تحت الأضواء ..

أول ما تبادر إلى ذهنى هو أننى قد أقضى ليلتى فى زنزانة النساء داخل أقرب قسم شرطة لـ (دار الأوبرا) ..

يا لها من فكرة ، ويا له من موقف !

برغم هذا فقد بذلت جهدًا خارقًا للسيطرة على انفعالاتى وأنا أقول محاولة أن أبدو رابطة الجأش متماسكة :

ـ إحم .. إننى صحفية ..

لم يكن الوقت مناسبًا لأن أتذكر أن (المايسترو) يمقت كل ما يمت للصحافة والانتشار بصلة ، قد يجعله ما قلت يتمادى فى غضبه ، لكنه قد يكبحه عن استدعاء الأمن أو طلب رقم الطوارئ الشهير (١٢٢) من مكتب المدير ..

وقضاء أخف من قضاء !

انتظرت أن تنبعث كل مردة الغضب من عينيه الزرقاوين ، توقعت أن يزداد تجهم قسماته الحادة وتجاعيده البارزة ، لم أستبعد عاصفة من السخط والحنق والعصبية ، بل لم أنح

فكرة استدعائه نجدة أمنية جانبًا ، غير أنه ـ اندهشوا معى ـ لم يفعل !

لقد ابتسم ـ اندهشوا معى مرة أخرى ـ ابتسامة خفيفة سرعان ما اختفت خلف قناع من الصرامة الجامدة ، أقسم إنه فعلها قبل أن يسألنى فى هدوء :

ـ ومن قادك إلى هنا ؟!

أجبته دون تفكير وقد صدمنى رد فعله :

ـ أتيت وحدى ..

تقدم عدة خطوات نحو الداخل وهو يغمغم فى لهجة لم أدرك لها مغزى :

ـ لايدهشنى هذا ، إننا نعانى قصورًا أمنيًا رهيبًا ها هنا ..

استطعت أن أتمعن فى هيئته وقد زال توترى إلى حد ما ، كان يرتدى قميصًا وبنطالاً عاديين غير مهندمين ، إنه يفضل اللون القرمزى على ما يبدو ..

حتى حذاؤه الكاوتشوك ، الرياضى يحمل نفس اللون ..

دنا من مكتبه وأخفى شيئًا ما كان يحمله فى أحد أدراجه ، قبل أن يرفع ناظريه نحوى من جديد متسائلاً :

ـ فى أى جريدة تعملين ؟!

لايبدو كارهًا للصحافة والانتشار كما سمعت وإلا لما فكر فى طرح السؤال ..

ـ (الأربعاء) ..

ـ ماذا ؟!

سألنى فى غلظة أربكتنى ، فأعدت القول بصوت أعلى .

ـ (الأربعاااء) ..

قال فى لهجة لم تحمل أدنى قدر من السخرية :

ـ ظننته اسم أحد أيام الأسبوع !

ـ إنها جريدة مستقلة ترأس تحريرها السيدة (الـ ...

قاطعنى فى عجلة :

ـ ليكن .. وماذا يمكننى أن أقدم لك ؟!

إنه يمنحنى فرصة لم أحلم بها على طبق من ذهب مرصع بالأحجار الكريمة ..

ـ كنت أحلم بتقديم انفراد حوارى مع المايسترو (سليم حجاب) قبل دقائق من العزف الأول لرائعته الجديدة (دقات الفزع) ..

فى جميع الأحوال سأكون الرابحة ، إما موضوع صحفى جيد ، وإما الخروج من غرفته بسلام !

ـ لن يسعفنا الوقت الآن ..

ـ لكن ..

ـ لقد تأخر رفع الستار لخمس دقائق كاملة ، وأنا أكره التأخر على جمهورى ..

قالها بحسم لم يدع مجالاً للجدل أو الإلحاح ، لكنه منحنى أملاً أخيرًا ..

ـ ربما بعد نهاية العرض ..

سألته بلهفة :

ـ حقًا ؟! أهذا ممكن ؟

ـ أنت هنا يا (سلـ ..) .. أ .. يا (مايسترو) ؟!

أتى الصوت العذب الرقيق الحنون كتغريد (الكناريا) من

ناحية الباب الذى ما زال مفتوحًا ، وعندما التفتّ رأيت صاحبة الصوت التى اعتراها حرج رهيب بمجرد رؤيتها لى ..

فتاة ضئيلة الحجم حتى لكأنها تبدو طفلة لم تتجاوز المرحلة الإعدادية ، ملامحها طفولية إلى حد مدهش ، كل ما فيها دقيق ضئيل ، العينان ، الأنف ، الفم ، حتى الكفين يبدوان كأنهما لطفل رضيع ..

قال لها (المايسترو) بصوته ذى النغمة الواحدة من نوع (الباص)(*) :

ـ أعلم أننى تأخرت يا (حنان) ، لكنى أتيت الآن فقط من المهمة العاجلة التى ذهبت إليها ..

انكمشت (حنان) على نفسها أكثر وهى تنظر نحوى بنظرة خفية لم تفتنى ، ثم قال (المايسترو) متجهًا نحو حلته المعلقة فوق المشجب :

ـ طمئنيهم بأننى على الفور ، امنحونى فقط دقيقتين لتبديل ملابسى ..

(★) (الباص) هو الصوت الغليظ للرجال ويقابله (الكونترألطو) عند النساء ..

هزت (حنان) رأسها بالموافقة وهى تقول بصوتها الـ (سوبرانو)(*) :

ـ وهو كذلك يا .. (مايسترو) !

ضغطت على الكلمة الأخيرة كأنها تتعمد إسماعى إياها ثم اختفت ، عندها لم يكن أمامى من بديل سوى أن أحذو حذوها قائلة بصوتى من طبقة (الميتزوسوبرانو)(**):

ـ سألتقى بك بعد العرض يا سيدى ، أستأذنك الآن ..

التفت نحوى وهو يقول دون أن تتبدل ملامحه الصارمة ودون أن يتحول صوته الرصين :

ـ سيكون لديك انفراد رائع عند نهاية العرض يا فتاة ..

وأردف :

ـ إن لدى الكثير جدًا لأقوله !

* * *

لابد أن الدماء كانت تغلى فى عروق (هشام) ، هذا مفهوم بالطبع !

(*) الـ (سوبرانو) هو الصوت الحاد للنساء ويقابله (تنور) عند الرجال ..

(**) الـ (ميتزسوبرانو) هو الصوت المتوسط الحدة للنساء ويقابلة (باريتون) عند الرجال ..

لكن الظلام الذى إذ ساد المسرح فجأة أنقذنى من التورط فى شجار معه ، خطوة واحدة تلك التى كانت تفصله عن الانفجار ، وها هو الظلام قد نزع الفتيل ، ولو مؤقتًا !

سألنى عندما رآنى آتية نحوه من جهة الكواليس فى عصبية :

ـ أين كنتِ ؟!

وقبل أن أجيب فى الحقيقة لم تكن لدى إجابة شافية نظرًا لانشغال تفكيرى بما هو أهم ـ انتبه بدقة ملاحظة شرطى محنك إلى شىء ما ـ فازدادت لهجته حدة وإشاراته عصبية وهو يسألنى من جديد :

ـ وأين حذاؤك ؟!

انتبهت عندها فقط إلى نسيانى له فى غرفة (المايسترو) ، يا للوضع المتناهى فى السخافة المتعاظم فى الإحراج ، يبدو أن انشعالى بما هو أهم جعلنى أغفل عن كونى أسير حافية كل هذه المسافة فوق السجاد الناعم !

ـ لقد انكسر كعب الفردة اليمنى ..

قلتها تلقائيًا ، وقبل أن يقفز السؤال التالى فوق لسانه أسرعت أجذبه من ذراعه نحو باب قاعة العرض متابعة فى همس عملى :

ـ سأروى لك كافة التفاصيل لاحقًا ، دعنا نلحق ببداية العرض أولاً ..

وها نحن جالسان فى المقعدين المخصصين بالصف الأول ، وبجوارى مقعد أبى الشاغر (هل سيجىء ؟!) ، و(هشام) يمارس عصبيته فى هز ساقيه والدق بأصابعه فوق مسند المقعد ، وأنا أحاول تجاهل الموقف الذى تعقد على الرغم من محاولة جمع شتات أفكارى والتركيز فى نقطة ما أبدأ منها ، متناسية كونى أول متفرجة تحضر حفلاً فى دار (الأوبرا) حافية القدمين ، سيسجل لى التاريخ هذا الحدث بلا شك !

وفى الظلام الأسود ، ارتفع صوت آت من المكبرات :

ـ السادة الحضور ، نعتذر عن هذا التأخير الذى جاء لظروف خارجة عن الإرادة ، ونتمنى لكم وقتًا طيبًا مع سيمفونية المايسترو (سليم حجاب) الجديدة ، (دقات الفزع) ..

ارتجفت على الرغم منى مع سماعى الاسم برغم أن أذنى قد بدأت فى الاعتياد عليه ، هل هو الظلام ؟ هل هو الصوت العميق المؤثر الذى قيل به ؟ أم الاثنان معًا ؟!

ـ هذا صوت (ياسر مدكور) ، إننى أعرفه جيدًا ..

ميزت الكلمات الهامسة فى الصف التالى ، لابد أنه حوار متحذلق آخر ..

ـ من ؟!

ـ (ياسر مدكور) ، تلميذ المايسترو (سليم حجاب) وذراعه اليمنى ، ألم تسمع عنه من قبل ؟!

ـ كلا ..

المزيد والمزيد من الحذلقة !

ـ إنه مرشح ليكون خلفًا له فى حمل شعلة الفن الموسيقى الراقى ، فبرغم صغر سنه وحداثة تجربته إلا أن المايسترو يتبناه ويتوسم فيه النبوغ المبكر ، يشبه البعض العلاقة بينهما بتلك التى كانت تربط (شوبرت) بالعملاق (بيتهوفن) ..

ـ (بيتهوفن) مرة أخرى ؟!

لامزيد من الحذلقة ، لقد بدأ الستار ينفتح ببطء مع سطوع الأضواء على خشبة المسرح ، فوق رءوس أفراد (الأوركسترا) الجالسين فى صمت أمام الأوراق الموسيقية ، فوق الحوامل المعدنية ..

ـ ها هو ذا ، إنه عازف الكمان الأول هناك ..

ـ ذلك القصير الأبيض البشرة ؟!

ـ بل الطويل الأسمر المجعد الشعر !

رأيته واستطعت تمييزه بسهولة ، ما من أسمر بين عازفى

الكمان سواه ، ثم إنه يجلس فى وضع متقدم قليلاً عن الباقين بصفته عازف أول (صولو) ، نحيل إلى درجة ملحوظة ، حتى إن الحلة الفاخرة بدت فضفاضة عليه ، عيناه تشعان بالبريق وسط اسمرار وجهه البيضاوى كزيتونة ، يحتضن الكمان فى عشق غير مفتعل كأنه صديق ..

استطعت أن ألمح من بعيد ـ وبصعوبة نسبية ـ الفتاة ضئيلة الحجم ذات الملامح الطفولية الدقيقة التى رأيتها عند المايسترو منذ قليل ، كانت مختفية تمامًا خلف أوتار (الهارب) الضخم المنتصب فى ركن المسرح ، إنها إحدى العازفات فى (الأوركسترا) إذن .. بماذا ناداها المايسترو يا (نسرين) ؟!

(حنان) نعم ، إن لى ذاكرة لابأس بها أبدًا ..

لامزيد من الملاحظات ، اللهم إلا إذا اعتبرنا كاميرات التصوير التليفزيونية التى ستنقل بثًا حيًا على الهواء مباشرة لحفل الليلة على الشاشات الصغيرة ملاحظة ، ففيما عدا ذلك كان كل شىء عاديًا تمامًا ..

صفق الجمهور للمايسترو فور ظهوره على الخشبة بحلته التى رأيتها من فورى فى غرفته ، لم يكن معنيًا بهندامه على ما يبدو ، أو لعلها العجلة التى استدعاها تأخره ، انحنى

للجماهير المحبية فى شمم دون أن يجشم نفسه عبء الابتسام ، ثم أعطانا ظهره واقفًا أمام الحامل المعدنى الرئيسى فى صدر المسرح ، تناول عصا القيادة ، طرق بها عدة مرات فوق الحامل ، فتح الصفحة الأولى من النوتة الموسيقية ، وبدأت سيمفونية (دقات الفزع) ..

ندت عنى شهقة مكتومة ، البداية كانت مفزعة بحق ، مزيج من الايقاع المفاجئ ، وصرخات الآلات الوترية الحادة ، صاحبتها صيحات آلات النفخ النحاسى ، كل هذا فى توافق لحنى هارمونى خاص جعلنى أفزع فعلاً ، وفى الغالب هذا ما حدث للجميع ..

وبدأت الصيحات الموسيقية تنخفض ، ثم علت ، ثم انخفضت ، ثم علت ، ثم .. توقفت !

هل انتهت السيمفونية بهذه السرعة ؟!

عهدى بالسيمفونيات أنها طويلة ، إن أبى قد يقضى مايزيد على الساعة الكاملة فى سماع واحدة منها !

ليكن ما يكون ، لقد توقف العزف ولم تخنى أذناى ...

و ... صفقت !

وكم خجلت من نفسى بعدها ، كنت الوحيدة التى

علاصوت كفيها مع همهمات اشمئناط مشمئزة ، وفيما بعد عرفت القاعدة الذهبية فى حفلات (الأوبرا) :

« لا تصفق إلا إذا صفق الآخرون ! »

وفيما بعد عرفت أن السيمفونية (وهى كلمة يونانية معناها تآلف الأصوات) ، تتكون من أربعة فواصل متوالية : أولها ذو طابع سريع الحركة ، وهو مافات ، والثانى ذو طابع هادئ رصين ، قد يسمونه (روندو) وهو الآتى ، والثالث يأخذ هيئة معتدلة بين السرعة والبطء ، وينتهى الفاصل الرابع بأداء سريع كالأول ، هذه القاعدة أرستها المدرستان الكلاسيكية والرومانتيكية لكنها قابلة للتغيير كأى قاعدة فنية ..

تداركت لحظتها الموقف سريعًا وإن غرقت فى عرق بارد ، لمحت بسمة شامتة على شفتى (هشام) برغم الظلام أو لعلى كنت واهمة ، وفهمت أن التصفيق وسط الفواصل لاينم إلا عن جهل وسوقية بالنسبة لمشاهدى (الأوبرا) ، تناسيت الأمر وحاولت التركيز فى الفاصل الثانى الذى بدأ بالفعل ..

كان المايسترو منغمسًا بكل جوارحه مع النغمات ، كل حركة فى جسده ، كل خلجة فى وجهه ، كل ارتعاشة فى أطرافه كانت متناغمة بشكل أو بآخر مع النغم ، كان يتمايل بجسده ، يعبر بعصاته ، يسبح بانفعالاته فى بحر موسيقاه ، كأنه يريد أن يتوحد فيه ، أن يصبح جزءًا منه ..

كذلك كان تلميذه ، وكانت (حنان) ، بل إنى لا أبالغ إذا قلت أن كل عازف كان كذلك ، إنها شخصية المايسترو حين تفرض سطوتها السحرية على أرواح من ينفذون هواجسه الموسيقية ..

انتهت الحركة الثانية ، طالت قليلاً لكنها انتهت ، وبدأت الحركة الثالثة ، سمعت زفرات (هشام) المتململة فى الظلام أكثر من مرة ، لكنى تجاهلتها وتبسمت فى شماتة بدورى ، وعدت ألقى بنظرة حزينة على مقعد أبى الشاغر بجوارى ..

انتهت الحركة الثالثة ، وعاد الإيقاع المفزع مثلما بدأ ، إنها الحركة الرابعة والأخـ ...

طرااااخ .. شهقات فزع حقيقى ... صيحات رعب نسائية الحدة ..

المشهد يرتبك تحت أضواء المسرح وداخل صالة المتفرجين..

ماذا حدث ؟!

- يا إلهى .. إنه المايسترو !

كل ما استطعت تمييزه لحظتها أن العزف قد توقف ، وأن (هشام) لم يعد بجوارى ، وأن المايسترو الذى كان هائمًا فى رحاب سيمفونيته منذ ثوان ، قد أصبح الآن فى رحاب الله ..

لقد سقط على المسرح مضرجًا فى دمائه !

* * *

٥ ـ شبح الأوبرا ..

(ما حدث لم يحدث ، بل سيحدث !)

★ ★ ★

لم أفق من حالة الذهول التى شملتنى كليًا إلا بعد ساعتين أو أكثر ، لقد كانت الصدمة أكبر من أن أحتملها فيما يبدو ..

الغريب أننى وجدت نفسى فى مكان مألوف نوعًا ما بالنسبة لى ، الأرضية الرخامية والجدران الزرقاء ، والمقاعد الـ ... لحظة ، أليس هذا مستشفى والدى ؟!

إنه هو ، ها هو ذا طاقم التمريض يعدو هنا وهناك ، الأطباء الشبان يذرعون الممرات ذهابًا وجيئة ، وأنا جالسة ـ كطفلة يتيمة ـ فوق أحد مقاعد بهو الاستقبال الوثيرة ، أسائل نفسى : ماذا حدث ؟!

كيف وصلت إلى هنا ؟!

أى فقدان للذاكرة والتوازن اعتراتى ولم أفق منه إلا الآن ؟!

ـ لقد لفظ أنفاسه الأخيرة !

فزعت برغم معرفتى بصاحب الصوت الآتى من خلفى ، استدار رأسى نحو الخلف لأرى (هشام) يستند بكفيه على ظهر مقعدى ، وملامح وجهه الطفولية تنطق بالانزعاج ..

مازال مرتديًا حلة السهرة وإن كانت أزرار السترة مفتوحة وحواف القميص قد برزت من قمة البنطلون ، لقد كان يهرول مسرعًا فيما يبدو ، أنا أيضًا كنت لا أزال فى ثوب السهرة ، وإن كان عقلى مشوشًا للغاية ..

ـ أين أبى ؟!

هذا ما تبادر إلى ذهنى لحظتها ، لكنه سؤال فى قائمة لاتنتهى من الأسئلة ..

دار حولى دورة ناقصة ليجلس فى مواجهتى تمامًا ، ثم زفر وهو يغمغم طارقًا بأصابعه فوق زجاج المنضدة الفاصلة بينى وبينه :

ـ لقد حاول فعل المستحيل لإنقاذه لكن مجهوده ذهب هباءً ، الإصابة كانت أبعد مما يستطيع علاجها أحد ..

وتراجع بظهره متابعًا :

ـ مازال مع وكيل النيابة يحاولان سبر أغوار الجريمة من الناحية الطبية ..

تجرأت وسألته :

ـ ما الذى حدث ؟!

حدق فى وجهى عابسًا كأنه يتأكد من سؤالى ، وسألنى فى لهجة فيها صيغة حياد :

ـ هل تجدينه وقتًا مناسبًا للمزاح ؟!

ـ أنا أعنى ما أقول !

ـ هل أنت بخير يا عزيزتى ؟!

ـ أرجوك لا تبدأ فى هذا !

لعله لاحظ الضيق الذى فاحت رائحته من كل حرف أنطقه ، ولعله لاحظ كذلك الصدق المتوارى فى لهجتى ، فهز كتفيه قائلاً وقد سلّم أمره للمولى عز وجل :

ـ كل شىء قد حدث أمام عينيك على ما أعتقد ، بدءًا من سقوط كشاف الإنارة الضخم فوق رأس المايسترو وهو مندمج فى قيادة الأوركسترا ليسقط فوق خشبة المسرح مهشم

الرأس ، فاقدًا للوعى ، ينزف الدماء بطريقة مرعبة ، إلى الهرج والمرج اللذين سادا بين الحضور ، وأعضاء الأوركسترا اللذين لم ينهوا عزف السيمفونية لحظة وقوع الحادث ، إلى حضور عربة الإسعاف لنقل المايسترو فى حالة أسوأ من سيئة ، إلى حضورنا إلى هنا فى سيارتى ..

نعم .. بدأت المنطقة المعتمة فى عقلى تضىء قليلاً قليلاً ..

ـ لم نجد مستشفى أقرب لدار (الأوبرا) من مستشفى الدكتور (فاروق الجبالى) ، صحيح أنها متخصصة فى جراحات المخ والأعصاب لكنها تحوى أطباء يستطيعون التعامل مع الحالات الطارئة ، وبرغم قلة التجهيزات الخاصة بحالات كهذه إلا أن والدك ومعاونوه قد حاولوا فعل المستحيل ، لكن قضاء الله نفذ ، لا راد لقضائه .. المشكلة أن ..

قاطعه صوت نحيبى الذى علا قليلاً قليلاً قبل أن تنهمر شلالات الدموع من مقلتى !

الأمر يستحق فعلاً علامة التعجب ، ويستحق العبوس الذى ارتسم فوق وجه (هشام) المبهوت لتصرفى ، كنت أهتز من البكاء !!

لمـاذا ؟! سـؤال وجيـه لسـت أملك ـ أنا نفسى ـ إجابة شافية عنه ..

إنها لم تكن المرة الأولى التى أجد فيها نفسى فـى مواجهـة حادث موت بشع ، حدث هذا أكـثر مـن مـرة ، ربمـا يكـون السبب فى أننى كنت مع الراحل قبل وقت قصير للغاية مـن ملاقاة حتفه ، وربما يكون فى شهودى لحظة الحادث التـى تجاهلتهـا ذاكـرة المـدى القصـير عنـدى لوقت غير قصـير ولأسباب أجهلها ، وربما لا يبدو التفسيران مقنعان تمامًا ، لكن أيًا منهم سيكون أفضل بالتأكيد من احتمال أن يكون سبب البكاء مجرد فقدى لفرصة الحوار الصحفى مع المايسترو قبل أن يموت !

صحيح أن الصحافة بلاقلب ، لكنهـا ليست وحشًا بريًا قاسى الطبع منعدم المشاعر ! المهم أننى لحظتهـا كنت أكابد ضغطًـا عصبيًا لاقبل لى به ، وفجأة شعرت بـ (هشام) يجلس بجوارى ويحتضن كفَى فى حنـان ـ لاقبل لى به هو الآخر ـ هامسًا :

ـ أعلم أنهـا كانت ليلـة عصيبة ، لاتبتئسى يا ملاكى ..

وامتدت أصابعه تمسح دموعى ، شعرت بتحسـن رهيب وسمعته يواصل همسه :

ـ لم أكن أعلم أنك مرهفة الأحاسيس إلى هذه الدرجة !

على الرغم مما انطوت عليه عبارته من إهانة خفية شعرت بمزيد من التحسن حتـى إننـى توقفت عن البكـاء تمامًـا ، وشرعت أجفف دموعى بمنديل ورقـى تمخطت فيه فـى النهاية !

ـ هلمى أوصلك إلى المنـزل ، لابد أنـك فى حاجة ماسة للراحة ..

هززت رأسى بالموافقة ، واستجبت ليده التى أنهضتنى ..

ـ تبدو عيناك رائعتين فى هذا الاحمرار !

يظن نفسه ظريفًا .. إنه كذلك لدرجة أننى ابتسمت !!

ـ ولا تنسى تنظيف قدميك !

واكتشفت أننى مازلت بلا حذاء !!

* * *

كنت فعلاً فى حاجة للعودة إلى المنزل ، ليس للراحة وإنمـا محاولة للتفكير ..

مازالت كلمات السيد (س) الليلة تدوى فى أذنى كألف صدى ..

ـ (.. الدقات ، لن تفزع أحدًا سواه) ..

ـ (.. الشبح ، شبح الأوبرا) ..

هل يكمن السر فى هذا العمل الأدبى الذى لم أقرأه بعد ؟!

إننى أتحرق شوقًا لمعرفة عم يتحدث ، ثم إننى أذكر ـ ضمن ما أذكر ـ أن مشهدًا رئيسيًا من مشاهد العمل الأوبرالى تتضمن سقوط الثريا فوق خشبة المسرح ، سمعت هذا فى مرة من المرات من برنامج تليفزيونى مهتم بهذا الفن .. ألا يشبه هذا ـ ولو جزئيًا ـ حادث الليلة ، سقوط كشاف الإنارة فوق رأس المايسترو ؟

نعم .. لابد أن هذا العمل سوف يفسر لى جزءًا من الأحداث ..

لكنى لا أملك منه نسخة ، وليس لدى أى مرجع عنه ..

لايهم .. من يبحث عن المراجع والنسخ الورقية فى عصر شبكة (الإنترنت) ؟!!

* * *

« شبح الأوبرا كان موجودًا بالفعل ، لم يكن ـ كما طال

به الظن ـ مخلوقًا من خيال الفنانين أو خرافات المديرين ، أو نتاجًا للمخيلات البريئة لفتيات الباليه الصغيرات أو أمهاتهن أو القائمين على المقاصير المغلقة أو حارس الدار ..

« نعم .. كان مخلوقًا من لحم ودم ـ لو كان لنا أن نقول ـ يظل شبحى » ..

هذا ما خطه (جاستون ليرو) لنفسه في مقدمة رواية (شبح الأوبرا) التى صدرت عام ١٩١١ تاركا مخيلات القراء فى تلك المنطقة الحرجة الفاصلة بين الواقع والخيال ، ومخلفًا سؤالاً عصيًا على الإجابة والأغلب أنه سيظل كذلك :

هل كان شبح الأوبرا حقيقة فعلية شهدتها دار أوبرا باريس ، أم أنه محض تصور خيالى خصب لكاتب طواه النسيان ؟!

إنها القصة المعهودة ، الشخصية التى تسطع فى سماء الشهرة حتى يحجب ضوؤها اسم مبتكرها ، لكن الجميع يراهنون على أن (ليرو) لم يكن ليتصور أبدًا نجاح روايته إلى هذا الحد الذى ضمن للشبح مكانته المتميزة فى عالم الخيال والأوبرا ..

لقد درس (ليرو) القانون بناءً على رغبة والده الثرى برغم عشقه غير المعلن للأدب وللمسرح بالتحديد ، كتب فى أوقات فراغه عددًا من المسرحيات التى لم تلق شهرة

غير عادية ، بل إن أغلبها قد حالفه الفشل ، حتى توفى والده فجأة تاركًا له ميراثًا ضخمًا يجاوز المليون فرنك ..

أدارت النقود ـ كما تفعل بكل من يجد لديه ثروة مفاجئة ـ رأسه ، ترك القاتون وبعثر الفرنكات على موائد (البوكر) فى ليالى (باريس) الملونة ، وكان عليه أن يبدأ من جديد فوجد نفسه فى الصحافة ..

عمل مراسلاً لـ (أصداء باريس) ، كتب فى السياسة والدراما والرحلات ، ولما اشتد الضغط على صحته استقر بأسرته فى (باريس) وأصبح كاتبًا روائيًا ، كانت رواياته الأولى مجرد محاولات للتربح عن طريق السطور الغارقة فى العنف والدم ، ثم فى عام ١٩٠٧ استخدم إعجابه بـ (إدجار آلان بو) وسير (آرثر كونان دويل) فى خلق شخصية (جوزيف روليتابى) المخبر السرى صغير السن الذى نجح فى حل عقدة جريمة تبدو مستحيلة تم ارتكابها فى غرفة مغلقة ، ضمن أحداث رواية (سر الغرفة الصفراء) ..

ثم ولد (شبح الأوبرا) على صفحات الرواية التى استطاع خلالها (ليرو) أن ينقل أجواء (باريس) أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت الاعتقادات فى عوالم الأرواح وما وراء

الطبيعة فى أوجها ، لم تحقق الرواية فى البداية النجاح الباهر ، كانت مبيعاتها متوسطة والمقالات النقدية حيالها مخيبة للآمال ، ولم ينشأ الاهتمام بها شعبيًا إلا عندما نشرت مسلسلة فى صحف (فرنسا) و(بريطانيا) و(الولايات المتحدة) مع رسوم توضيحية للشبح بقناعه الشهير ، وهذا الاهتمام هو ما حول (شبح الأوبرا) إلى فيلم سينمائى أنتجته (يونيفرسال) ليصنع نجومية الممثل (لون شانى) بعد ما عرض لأول مرة عام ١٩٢٦

لكن (ليرو) لم يعش ليرى النجاح الذى حققته شخصيته الأوبرالية ، وقضى نحبه عام ١٩٢٧ عن عمر ناهز التسعة وخمسين عامًا مخلفًا أكثر من ستين رواية لم يصنع أيها منه ثريًا ناجحًا ..

القصة طويلة ولا يمكن تلخيصها فى سطور قليلة ، لكنها فى مجملها صراع على قلب (كريستين داى) المغنية الحسناء بين شبح الأوبرا (إريك) والفتى الجسور (راءول دى شاجنى) صراع مفعم بالخيال والأسطورة والتضحية والنبل والوفاء ..

فى البداية يستنكر القائمون على الدار وجود الشبح الذى يصر على حجز المقصورة الخامسة لنفسه كل ليلة ، مزعجًا من يجلس فيها ، ويقرر تحديه عندما يطلب منهم كتابة أن تغنى

(كريستين) بدلاً من (لاكارلوتا) فى دور (مارجريت) بـأوبرا (فاوست) ، بل ويمعنون فى التحدى بالجلوس داخل المقصورة الخامسة نفسها ، وفى بداية الفصل الثالث من الأوبرا يتحول صوت (كارلوتا) إلى مـا يشبه نقيق الضفـادع مثيرة عاصفة من الضحك الساخر بين المتفرجين ، فيغادر المسئولون المقصورة فى ارتباك متعجل ، ويسمع الحاضرون صوتًا ينـادى من المقصورة الخامسة « إنها تغنى حتى تكاد الثريا تسقط » وبدون مقدمات تتحطم السلسلة المعدنية الضخمة التى تثبت الثريـا العملاقة إلى السقف لتقع فوق رأس حارس الأوبرا الجديد ..

يحدث هذا مع نمو أزهار الحب فى قلبى (كريستين) و(راءول) ، الأخير عاشق مفتون ، وهى مأخوذة بفكرة (ملاك الموسيقى) الذى يظهر لها من مرآة غرفة تغيير الملابس ، وتحاول مداراة الأمر حتى لا توصف بالخبال والعته ، لكن (راءول) يكتشف الأمر رويدًا رويدًا ، ويتفق مع (كريستين) على الهرب بعيدًا دون أن يدريا أن الشبح المتشح برداء أحمر قرمزى جعل البعض يطلقون عليه (الموت الأحمر) قد علم بكل شىء ..

وفى الليلة المتفق عليها للهروب ، وبينما (كريستين) تغنى تنقطع الأنوار عن الأوبرا وتعود ليتبين الجميع اختفاء (كريستين) ، لقد اختطفها (إريك) إلى عالمه السفلى فى قبو دار الأوبرا وخيرها بين الزواج منه أو الموت لكل من فى الأوبرا !

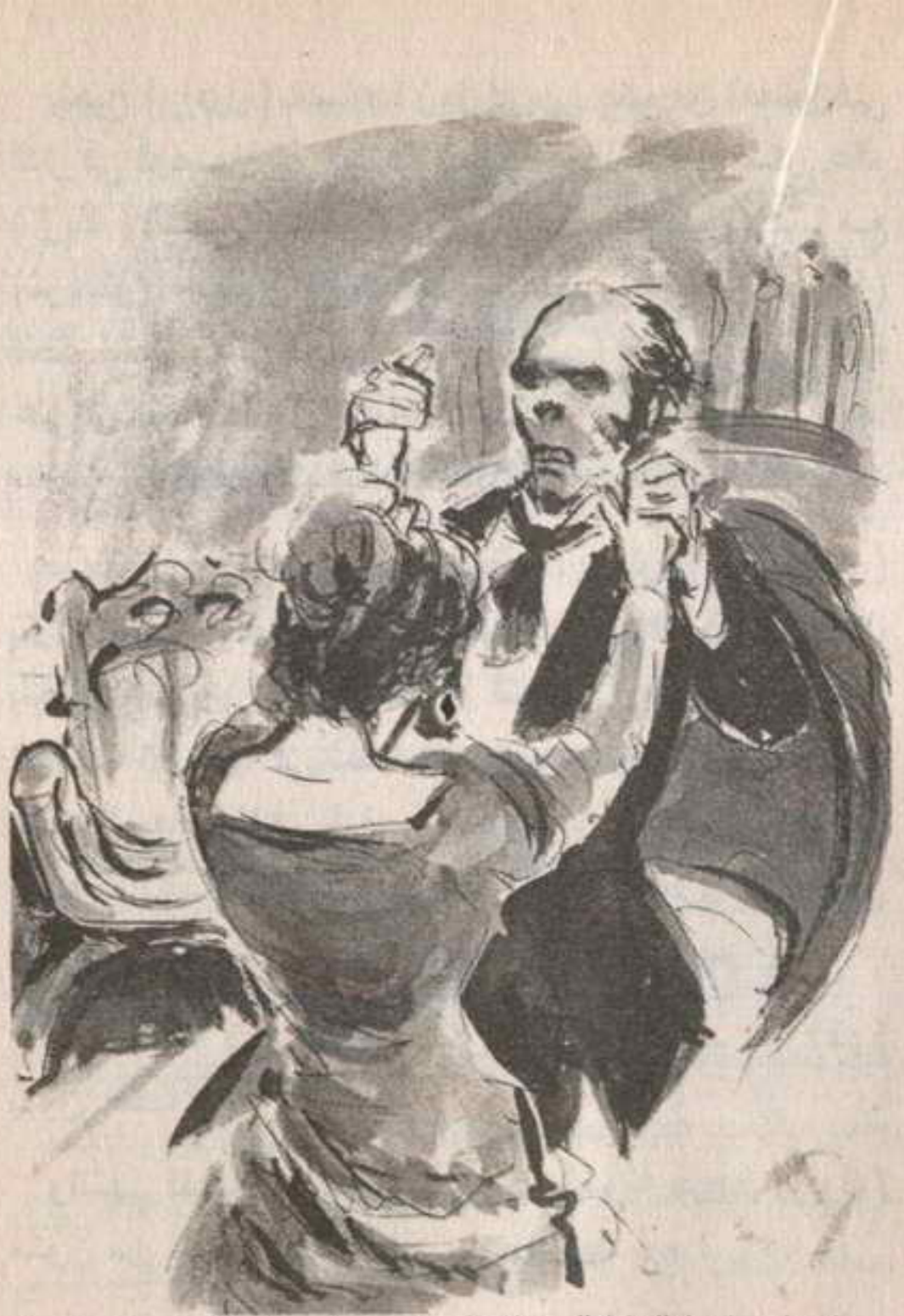

لقد اختطفها (إريك) إلى عالمه السفلى فى قبو دار الأوبرا وخيرها بين الزواج منه أو الموت لكل من فى الأوبرا ..

ينجح (راعول) بمساعدة رجل فارسى حكيم من العاملين فى الدار فى الوصول إلى المتاهة السفلية المظلمة التى تشكل عالم (إريك) الشجىّ الأسطورى ، ينجح فى التواصل حديثًا مع (كريستين) ، يعلم أن (إريك) قد خيرها بين أن تختار (الجرادة) فتحكم بالموت على الجميع ، أو (العقرب) فتنجو وتتزوج منه على أن يتم هذا قبل الساعة الحادية عشرة مساءً ، وبعد سلسلة من المغامرات البطولية تختار (كريستين) العقرب ..

هنا يتنازل (إريك) عن حبه العظيم ، ويترك (كريستين) تتزوج من (راعول) حبها الحقيقى ، ويُتم الأوبرا التى ظل ينجزها عشرين عامًا متواصلة (انتصار دون جوان) ، وتبرز الجوانب الإنسانية فى شخصيته من جرح وألم وبؤس لم يجد معنى للسعادة إلا فى شخص (كريستين) ، فقد ولد بوجه بشع لم تحبه حتى أمه ، وهذا ما جعله ينعزل عن البشر ويقيم فى المتاهة السفلية المظلمة لأوبرا (باريس) ..

فى المتاهة وجد القوة ، ولكن ـ فى النهاية ـ ما القوة بدون الحب ؟!

وتنتهى القصة بموت الشبح فى خبر نشرته جريدة (إيبوك) مكون من كلمات ثلاث « لقد مات (إريك) » !

* * *

بعد أن فرغت من قراءة ملخص القصة وجدت بدنى يقشعر..

القصة قريبة جدًا من مغامراتى مع السيد (س) ، كان محقًا عندما قال أنه نسخة معدلة من (شبح الأوبرا) ، لكنى لا أظن أننى أصلح لدور (كريستين) ، فصوتى فظيع حقًا ولا يصلح للغناء إلا بين جدران الحمام السيراميكية !

هل تنتهى القصة فى النهاية بأن يطلب منى السيد (س) الزواج ؟!

لا أظن ، وعلى أن أتجاوز هذه الخواطر السخيفة إلى التفكير فى الخطوة القادمة ، كيف سأتحرك وإلى أين ؟! لا تجدر بى مراجعة خطواتى السابقة أولا ؟!

لا أملك الكثير ، ما زالت الصورة مشوشة فى أغلب أجزائها المهمة ..

البداية المعتادة ، مكالمة مبهمة من السيد (س) يخبرنى فيها تنبؤه بوقوع حادث مصرع المايسترو (سليم حجاب) ، ألتقى بالأخير قبل رحيله فتزداد الصورة إبهامًا فوق إبهام ، وعلى مرأى ومسمع من جماهير الأوبرا وعدسات التلفزيون يسقط كشاف الإنارة فوق رأس المايسترو ليلقى حتفه فى مستشفى أبى ..

هذا كل شىء ، والأسئلة أكثر من أحصيها :

- هل هى مصادفة أن يموت المايسترو هكذا ؟! أم هو حادث مدبر بفعل فاعل ؟
- إذا افترضنا أنه حادث .. فما الدافع من ورائه ؟! وكيف تم تدبيره ؟!
- لماذا تأخر المايسترو عن ميعاد حفل (دقات الفزع) ؟! أين كان ؟!
- ما الكثير الذى كان لديه ليقوله لى بعد انتهاء الحفل ؟!
- ما علاقة الأمر بقصة (شبح الأوبرا) التى قرأتها من فورى ؟! ألم يقل السيد (س) أن الدقات لن تفزع أحدًا سواه ؟!
- كيف عرف السيد (س) بأن ما سيحدث سيحدث ؟!

هذا ما استطاع عقلى أن يلقيه من أسئلة وقتها ، كنت أعلم أن هناك المزيد منها لكنى اكتفيت بهذا القدر تبعًا لقدرة ذهنى المكدود ، أحتاج للنوم بشدة ..

النوم هو الحل الأمثل لأى مشكلة ، إنه تأجيل لها لا هروب منها !

دعونى قبلها أرهق عينى الحمراوين أكثر بشىء بسيط ، أحب دائمًا قبل النوم أن أتفقد صندوق بريدى الإلكترونى على الشبكة ، أعلم أننى لن أستطيع الرد على أى رسالة الآن ، لكنها عادة وأنا لست من هواة كسر عاداتى ..

ماذا لدينا ها هنا ؟!

رسالة واحدة جديدة ؟!

من المرسل ؟! ما هذا ؟! إنها المرة الأولى التى أتلقى فيها رسالة اسم راسلها مكون من حرف لاتينى واحد .. (x) !

هل يكون ... ؟!

ومن سواه ؟! إنه السيد (س) لأول مرة على البريد الإلكترونى !

فتحت الرسالة ـ بالفأرة لا بالسكين ـ بلهفة ، لم يكن فيها الكثير .. مجرد سطرين مكتوبين بإنجليزية مليئة بالأخطاء المقصودة ..

صغيرتى ..
حل اللغز يكمن فى هذه الصورة ..

ثم وصله تشعبية إلى ملف مرفق ، يقولون إن الخطأ الأكبر هو أن تفتح ملفاً وصلك بالبريد الإلكترونى دون أن تعرف مسبقًا ما كنهه ، فأبسط ما يمكن أن يحتويه فيروس يفتك بكل ما على ذاكرة حاسبك الشخصى ..

لكن .. لا أظن السيد (س) من هواة المزاح بهذه الطريقة ..

ثم إن الفضول قد يقتلنى لو لم أشاهد الصورة الآن .. وفورًا ..

ضغطت السهم فوق الشاشة على الوصلة التشعبية ، وانفتح الملف ..

لم يكن يحوى فيروسًا ، كانت صورة بالفعل ، لكنها صورة مخيبة للآمال إلى حد رهيب ..

إنها صورة اللوحة الدعائية التى شاهدتها عند مدخل دار الأوبرا الزجاجى .. هل تذكرونها ؟!

هذا كل ما هنالك ، لا أكثر ولا أقل !

★ ★ ★

٦ ـ الشموع السوداء ..

(كريستين) الجالسة أمام المرآة أصبحت بشعر كستنائى قصير ، وملامح دقيقة ، وعينين عسليتين ، و... مظار طبى !

هل كانت تستعد للصعود إلى خشبة المسرح ؟!

ربما نعم .. ربما لا ... من يستطيع الجزم بشىء وسط هذا الضباب الأزرق الكثيف المحيط بالمشهد من كل الجهات الأصلية والفرعية ؟!

فجأة لم تر انعكاس صورتها فى المرآة ..

فجأة تبدلت الصورة بظل رمادى مألوف لديها ..

ظل رجل .. أو الرجل الظل ..

شهقت فزعًا برغم الطمأنينة الخفية التى تسربت فى نعومة ـ كحبات دقيقة فى ساعة رملية ـ إلى وجدانها ..

ـ أنت ؟!

ـ من جديد يا صغيرتى ..

قالها مبتسمًا دون أن يبتسم ..

ـ من أنت ؟!

ـ ملاكك الحارس .. الشبح الذى وضع أيام عمره بين يديك ..

ـ ماذا تريد منى ؟!

ـ ما زال السؤال سابقًا لأوانه ..

أسأله فى لهف أم على وليدها ..

ـ وهل ستتركنى وحدى مثل كل مرة ؟!

ـ ومن قال إن هذا فى مقدورى ؟!

فى بسمة تترنح بين الرجاء والتمنى أقول :

ـ ستعود إذن !

يأتى الصوت من اللامكان محملاً بهموم عمرها آلاف السنين :

ـ لو كنت أستطيع لحملتك معى إلى متاهتى السفلية المظلمة ، لكنى أشفق على قلبك الصغير من تبعات ما سيراه ..

ـ خذنى ولا تهتم ..

ـ كلا يا (كريستين) ، لن أكون بنذالة (إريك) ، إن (راءول) لك دون مزيد من العذاب ..

تعلو طرقات على الباب المغلق من خلفى ..

ـ لكن ..

ـ لكنى سأكون دائمًا بجوارك ، تذكرى هذا دائمًا ..

الطرقات تعلو .. وتعلو .. وتعلو ..

ـ لا تذهب يا سيد (س) ..

ـ إلى اللقاء يا صغيرتى ، تذكرى .. سأكون دومًا بجوارك .. إلى اللقاء ..

يتلاشى فى نقاء المرآة ..

تنحدر دمعة من عينى ..

ينفتح الباب من خلفى ..

ـ أأنت بخير يا (كريستين) .. مع من كنت تتحدثين ؟!

التفت نحوه .. إنه (راءول) بوجه طفولى ، وشارب كث ، وسيجارة مشتعلة بين أصابعه !

* * *

ـ كان حادثًا مدبرًا !

نفث (هشام) دخان السيجارة فى تلذذ بعد أن قالها ، وكأنه يعلن تمرده على لوائح دار (الأوبرا) التى منعته أمس من ممارسة هوايته الأثيرة ..

إنه الآن هنا بصفته رائدًا فى المباحث الجنائية يحقق فى حادث هز عشاق الفن الرفيع ، وتصدر العناوين الرئيسية فى الطبعات الثانية من صحف اليوم ..

فرقعت بأصبعىَ استحسانًا ـ وقد استعدت لياقتى بعد ساعات النوم الطويلة ـ ثم هتفت فى حماس :

ـ لقد توقعت هذا ..

نفث دخان السيجارة ثم قال فى استخفاف وهو يحدجنى بنظرة ذات مغزى بائن :

من يراك الآن لايتوقع أنك نفس الفتاة التى كان النشيج يهزها بالأمس ..

تجاهلت عبارته لئلاندخل فى نقاش جانبى بيزنطى آخر ، إننى لم أترك محاضرة مهمة اليوم من أجل هذا ، سألته دون أن يفتر حماسى :

ـ وكيف تم تدبير الحادث ؟!

نفث دخان السيجارة وقال فى جدية عاقدًا ساعديه أمام صدره:

ـ أعتقد أنك مدينة لى بكثير من التفسيرات أولاً ..

عم يتحدث ؟! هل هذا وقته ؟!

ـ هل بسبب تأخرى قليلاً بالأمس ؟! لقد تأخرت أنت أيضًا

ـ ولفترة أطول بكثير ـ فى دورة المياه تلبية لنداء الطبيعة المزعوم ..

ـ لكنى لم أترك حذائى فى غرفة المايسترو !

قالها محاولاً الحفاظ على هدوئه قدر استطاعته ، شعرت أن أسنانه ستتحطم من فرط ضغط فكيه عليها ، لم يكن يريد أن ينفجر فى وجهى أمام جنود الأمن ورجال المعمل الجنائى المنتشرين فى أنحاء المكان ، وللحقيقة وجدت أنه محق ..

أننى مدينة له بالفعل بعدد لابأس به من التفسيرات ..

ـ هوف .. سأروى لك كل شىء ..

ودون أن أهمل تفصيلة واحدة سردت له كل ما صار معى بالأمس ، وقد أثارت القصة اهتمامه إلى حد أرضانى حتى إن عقب السيجارة كاد يحرق أصابعه ، وبعد أن أنتهيت قال وهو يهرش فى شعيرات ذقنه التى بدأت فى البروز :

ـ ما معنى هذا ؟!

هززت كتفى وقلت :

ـ كالعادة ، ستظل الأمور بلا معنى حتى يقرر السيد (س) العكس ..

قال مضيقًا عينيه فى إحدى تظاهراته الفاشلة بالذكاء :

ـ مازلت غير مستريح لأمر الرجل الغامض هذا .. من أين أتى برقم هاتفك المحمول ؟!

.. وكأننى أعلم ..

ـ يمكنك أن تسأله ..

ـ ألم يظهر لديك على الشاشة رقم يمكننا تتبعه ؟!

ـ كلا .. يبدو أنه يستخدم خاصية حجب رقمه الخاص ..

ـ يبدو الأمر نوعًا من الخيال الطفولى المبالغ فيه ..

لن أقضى اليوم كله أتحدث فيما لافائدة من ورائه ..

ـ دعنا نتحدث فى الأهم .. هل أسقط أحدهم الكشاف على رأس المايسترو فى أثناء حفل الأمس ؟! قام بفك البراغى أو :....

تأتأ (هشام) نافيًا وهو يقول :

ـ كلا يا عزيزتى ، لقد كانت طريقة جهنمية لاتخطر على بال (إبليس) بنفسه ..

برقت عيناى وأنا أهتف سائلة فى لهفة عارمة :

ـ حقًا ؟! كيف ؟!

نظر إلى قمة المسرح الذى مازال مليئًا بالجنود ورجال التحقيق ، ثم سألنى مغمغمًا :

ـ هل تعانين من رهاب الأماكن العالية ؟!

ـ إطلاقًا ، ليس هذا فى قائمة الأمراض النفسية التى أعانيها ..

ـ هلمى إذن ..

بعد لحظات كنت بجوار (هشام) ألتقط بعينى منظرًا فوقيًا لخشبة المسرح ، مازالت دماء المايسترو فوق الحامل المعدنى الساقط تلوث نوتة (دقات الفزع) الموسيقية ، ومقاعد العازفين متناثرة هنا وهناك ، مع إضاءة آتية من كل مكان إلا ذلك الذى يعلو مكان وقوف المايسترو ، ومكان مصرعه ليلة أمس ..

كنت أقف بجوار (هشام) على درجة من درجات سلم معدنى طويل مخبأ فى الكواليس ، يستعمله فنيو الإضاءة والديكور فى الوصول إلى هذه الأماكن الشاهقة الارتفاع داخل المسرح ، شعرت بخوف لحظى من أن أكون أنا ضحية (الأوبرا) التالية اليوم لو سقطت الآن ، لكنى تجاهلت خوفى هذا مؤقتًا وأوليت اهتمامى لـ (هشام) الذى قال مشيرًا لنقطة ما على الحامل المعدنى العريض الذى تستند إليه مقدمة السلم العلوية :

ـ انظرى .. هذا مكان كشاف الإنارة الساقط ..

لم يكن موضعه بعيدًا ، لكن هذا فى حد ذاته لايفسر الكثير ، بل لايفسر شيئًا البتة ..

ـ وعن طريق هذه تمت الجريمة ..

أشار لنقطة قريبة للغاية من وقفتنا ، واستطعت أن ألمح بصعوبة ما يقصده ..

كانت شمعة سوداء تقزمت تمامًا ، وبجوارها حبل قصير احترق أحد طرفيه بينما ثبت الطرف الآخر فى حلقة معدنية على الحامل المعدنى الأفقى العريض ، نظرت إلى (هشام) مستفهمة فأجابنى على الفور :

ـ لقد اعتمد الفاعل على نظرية السهل الممتنع ، لقد ثبت هذا الحبل عاقدًا طرفه بإحكام فى هذه الحلقة ، وربط طرفه الآخر فى الكشاف المعدنى مرورًا بهذه البكرة الدائرية هناك والمستخدمة فى ديكورات الأعمال الأوبرالية ، ثم إنه فك مسامير الكشاف التى تثبته فى الحامل ليقوم الحبل مقامها ، وهنا يأتى دور الشمعة السوداء ، لقد أشعل ذؤابتها ووضعها فى هذا الوضع لكى تقوم بحرق الحبل رويدًا رويدًا ، حتى إذا ما انقطع ، سقط الكشاف بلارحمة ولا هوادة فوق أم رأس المايسترو ..

ارتفع حاجباى انبهارًا بألمعية الفكرة ، إن منفذها (إبليس) حقيقى ..

ـ .. أهم نقطة فى الخطة كلها هى التوقيت ، أن يسقط الكشاف بعد بداية الحفل حتى لاينكشف الأمر قبل مصرع المايسترو فعليًا ، وكان التنفيذ بارعًا حتى إنه تحقق قبل نهاية السيمفونية بقليل ..

ازدردت ريقى بصعوبة ، ثم سألت وقد لهثت انفعالاً :

ـ ولماذا شمعة سوداء ؟!

ـ يبدو أن القاتل لم يكن لديه خيار آخر ..

سألته مجددًا وقد شعرت بأنه يعرف أكثر مما يريد أن يبوح :

ـ القاتل ؟!

لم يجد مفرًا أمام مراوغات صحفية ماكرة مثلى ، فأجاب فى النهاية :

ـ أجل ، إن المؤشرات تدلنا على شخص بعينه تحوم حوله كل الشبهات حتى إننا عثرنا فى غرفته على دستة من الشموع السوداء نقصت بمقدار شمعة واحدة ..

ـ من ؟!

ـ لا أظنك تعرفيه ، إنه عازف فى الأوركسترا يدعى (ياسر مدكور) ..

لا أعرفه ؟! أليس ذلك الشاب الأسمر النحيل الذى سمعت ـ بمحض الصفة أو بالصدفة المحضة ـ من يتحدث عنه فى الصف التالى أمس ؟!

ـ أو ليس هو تلميذ المايسترو الراحل وذراعه اليمنى ؟! عازف (الصولو كمان) ؟!

هتف مندهشًا :

ـ تعرفينه إذن ؟!

قلت فى فخر :

ـ للصحفى مصادره الخاصة !

ـ هو بعينيه ..

ـ وما الدافع ؟! لماذا يفكر التلميذ فى قتل أستاذه ؟!

ـ فتش عن المرأة ..

ـ ماذا تعنى ؟!

كنا قد هبطنا السلم المعدنى الطويل ، وأصبحنا على خشبة المسرح ..

ـ التحريات المبدئية تشيرى إلى وجود علاقة عاطفية خفية بين (ياسر) وإحدى العازفات فى الأوركسترا ، إنها عازفة انضمت ـ عن طريق توسطه لها ـ إلى الأوبرا حديثًا قبل أن ينتهى المايسترو من وضع لمساته الأخيرة على سميفونيته (دقات الفزع) ، كان المايسترو قبلها منعزلاً عن العالم فى صومعته ولكن بمجرد بدء البروفات أظهرت الفتاة ميلها نحو المايسترو وبادلها الأخير الميل ضاربين بمشاعر (ياسر) عرض الحائط ، ويبدو أن هذا ما جعله يفكر فى الانتقام من أستاذه وحبيبته اللذين خانا إحساساته المرهفة البريئة ..

تبدو قصة منطقية للغاية ، و ....

لحظة .. هل ؟!

ـ هل هى عازفة (الهارب) ؟! (حنان) على ما أذكر ؟!

هز (هشام) رأسه بالإيجاب وهو يقول :

ـ هى بعينها ، إن مصادرك الصحفية دقيقة للغاية على ما يبدو ..

لهذا إذن كانت تناديه باسمه مجردًا من الألقاب قبل أن تلمحنى ، ولعل هذا أيضًا ما جعلها تتدارك الموقف أمامى وتناديه أكثر من مرة بلقب (مايسترو) ، هل كانت تشعر ان انتقام (ياسر) قد أضحى قريبًا ؟!

ـ وأين هى الآن ؟!

ـ مازال البحث جاريًا عنها ، لقد اختفت تمامًا بعد حادث الأمس ..

سألت وقد طاردنى هاجس مزعج :

ـ و (ياسر) ؟! مختف هو الآخر ؟!

ـ أعلم ما تفكرين فيه ، ولكن كلا .. إنه تحت أيدينا ، لقد

قضى ليلة الأمس كلها فى مستشفى أبيك بجوار جثة المايسترو ، كأنه يريد بهذا إبعاد الشبهة عنه ، الغريب والمثير للشك أنه استقبل رجال الشرطة الذين قاموا بالقبض عليه وترحيله لمبنى المباحث بهدوء تدر أن يواجه به مجرم مصيره ..

قطبت سائلة :

ـ وهل اعترف بارتكابه الجريمة ؟!

ـ لم يتم استجوابه بعد ، ولايمكن إزاء حالة كهذه أن يتوقع المرء أى شىء ..

شردت للحظة حاول عقلى فيها أن يربط بين الأمور المتباعدة ..

بين ما تم ورواية (شبح الأوبرا) ..

إن (كريستين) هى (حنان) بكل تأكيد ، ويبدو أنها ليست بمثل نبل (كريستين) البطلة لكنها اختارت المايسترو على أية حال وكرهت (ياسر) .. معنى هذا أن المايسترو هو (راءول) مع اختلاف مسببات العاطفة ، وأن (إريك) هو (ياسر) ..

لقد كان (ياسر) بالنسبة لـ (حنان) هو (ملاك الموسيقى) الذى مهد لها طريق العزف فى أكبر أوركسترا مصرية ، وعندما أعطت قلبها لـ (سليم) قرر الانتقام على طريقته الخاصة ، وبطريقته لم تبعد كثيرًا عن جو القصة الأصلية ..

لقد أسقط الكشاف ـ بحيلة بارعة ـ فوق رأس المايسترو ، كما سقطت الثريا فوق رأس مدام (كارلوتا) التى تحول صوتها إلى نقيق أضحك الجمهور ..

ـ أريد التحدث إليه يا (هشام) !

رفع (هشام) حاجبه الأيمن سائلاً :

ـ إلى من ؟!

أجبته بجرأة :

ـ إلى (ياسر) ..

لعله توقع منى مطلبًا كهذا ، لكنه دائمًا يحب الظهور فى صورة البطل ..

ـ لن يكون الأمر سهلاً .. إن ..

.. لأمنحه ما يريده إذن ..

أعلم ، لكنى أعلم أنك لاتقهر بسهولة أمام المواقف الصعبة ..

انتفخت أوداجه وقال فى زهو :

ـ دعينى أر ..

يا للرجال !

تظاهر بالتفكير قليلاً ثم قال :

ـ يمكننى أن أقوم بمحاولة ، لكنى لا أعدك بالنجاح ..

.. وكنت أعلم أنه سينجح !

★ ★ ★

فى غرفة صغيرة بمبنى المباحث الجنائية جلست أمامه ، مازال يرتدى الحلة الفاخرة التى تبدو فضفاضة عليه لفرط نحوله ، ومازالت عيناه تشعان بالبريق وسط اسمرار وجهه البيضاوى كزيتونة ..

ـ هل من خدمة ؟!

قالها فى هدوء واثق رابط الجأش ، هذا غريب ومثير للشك فعلاً كما قال (هشام) ..

ـ اسمى (نسرين الجبالى) ، كنت آخر من تحدث إلى المايسترو قبل رحيله ..

أشار للمسجل الصغير فوق سطح المكتب قائلاً :

ـ وما معنى هذا ؟!

ـ إننى صحفية ..

تبسم هاتفًا فى سخرية :

ـ وتريدين اقتناص انفراد .. (نسرين الجبالى) آخر من تحدث إلى المايسترو وأول من حاور الجانى ..

قلت فى هدوء واثق رابط الجأش :

ـ هل أعد هذا اعترافاً ؟!

قال هازًا كتفيه فى لامبالاة :

ـ أنهم يظنون أننى فعلتها ..

وأنا أبحث عن الحقيقة ..

ـ الحقيقة نسبية دائمًا ..

يكفى هذا القدر من المناورة ، سألته بطريقة مباشرة :

ـ هل تنوى إنكار التهمة ؟!

لوح بسبابته هاتفًا :

ـ ليس قبل أن أعرف مسببات الاتهام ..

ـ يجدون لديك دافعًا قويًا ..

ـ ألاوهو ..... ؟!

ـ (حنان) !

صمت كأنه بوغت ، ثم قال بنفس الهدوء الرزين المثير للشك :

ـ هذا ليس دليلا ، بل لا يرقى حتى لمستوى القرينة ..

واصلت هجومى دون لحظة تردد..

ـ والشمعة السوداء ؟!

انعقد حاجباه ـ هذه علامة طيبة لا شك ـ ثم سأل :

ـ ماذا عنها ؟!

ـ كانت السبب فى سقوط كشاف الإنارة ، وقد وجدوا مثيلاتها فى غرفتك .

ـ وكيف تتسبب شمعة مسكينة فى سقوط كشاف إنارة بحجم صندوق الدنيا ؟!

لابد وأنها حيلة أخرى .. لكن ، لماذا أشعر بالصدق فى كل حرف ينطقه ؟!

هل هو بارع فى تقمص البراءة الى هذا الحد ؟!

أم يكون بريئًا بالفعل ؟!

ـ حقًا لا تدرى ؟!

ـ أيًا ما كانت الطريقة ، هل تظنين أن السذاجة ستبلغ بى أن أستخدم وسيلة يسهل كشفها فى غرفتى إلى هذه الدرجة ؟! ألا يمكننى أن أكون قاتلاً أكثر حنكة فى ارتكاب جريمة يهتز بها الرأى العام ؟!

غريب .. ما يقوله منطقى تمامًا !

ـ تعنى أن أحدًا يحاول توريطك فى الجريمة ؟!

ـ لا أعنى شيئًا ، ولا تستنجى أى شىء مما أقول ..

كان حادًا قاطعًا ، تخلى عن هدوئه الواثق أخيرًا..

ـ .. سأعطيك ما يمكنك كتابته فى صحيفتك إذا أردت الأمانة الصحفية ، إننى لم أحب (حنان) ، كانت فقيرة ذات موهبة وطموح وخفت عليها من الضياع فى شوارع الذئاب الخلفية ، كنت أعطف عليها لا أكثر ولا أقل ، لذا ساعدتها فى الالتحاق بأوركسترا دار (الأوبرا) ، وعندما ظهر المايسترو وحاولت ـ إرضاءً لطموحها ـ أن تلقى بشباكها حوله حذرتها من نزوات الفنانين وأمزجتهم الهوائية المتقلبة ، لكنها لم تأبه ولم تعد عن الطريق الذى آثرت سلكه .. هذه هى الحقيقة

بلارتوش إن كنتِ إياها تبغين ، أما إذا كنت تريدين إبكاء قرائك وابتزاز مشاعرهم فاكتبى ما تريدين ..

سألته ..

ـ هل تعلم أن (حنان) مختفية تمامًا الآن ؟!

ـ أمر غير مستبعد ..

قالها مستعيدًا نبرته الهادئة الواثقة الرابطة الجأش ، فعدت أسأله :

ـ وهل تعرف أين يمكن العثور عليها ؟!

ـ لا .....

فى هذا الرد بالذات لم أشعر بصدقه ، وظهر هذا فى نبرات صوتى إذ سألته :

ـ وهل تعرف من يمكن أن يكون قد دبر هذا الحادث ؟!

التمعت عيناه ولم يرد ..

هذا الشاب يخفى فى جعبته أسرارًا كثيرة ، ومن الواضح أنه لن يكشف عنها ..

كدت أنهض حاملة خيبة أملى فوق كتفى ، لكنى تذكرت أمرًا :

ـ سؤال أخير .. هل تعرف سبب تأخير المايسترو فى حفل الأمس ؟!

ابتسم نصف ابتسامة ، سرعان ما اختفت وهو يجيب :

ـ ظننتك لن تسألى أبدًا ..

وأردف :

ـ لقد ترك دار (الأوبرا) فى الساعة السادسة تمامًا لأمر خاص ..

ـ أى أمر خاص هذا ؟!

ـ زيارة أسرية ..

ـ لمن ؟!

ـ هذا كل ما قاله ، إن لديه كثيرًا من الأسرار لم يكن يحب أن يبوح بها لأحد ..

فى هذا الرد أيضًا لم أشعر بصدقه ، واستفزنى لمعان عينيه المشعتين ..

هذا الشاب يعرف الكثير ، لم يعد لدى شك فى هذا ، كما لم يعد لدى شك فى أنه لن يبوح بشىء من هذا الكثير الذى يعرفه !

* * *

٧ ـ شارع محمد على ..

يا للحيرة !

برغم كل ما توافر لدى من معلومات مازالت الصورة ناقصة ..

جلست أحاول كتابة التحقيق ، مزقت عشرات الأوراق وشطبت مئات الكلمات دون جدوى ، مازالت الفراغات أوسع من قدرتى العقلية على ملئها ..

- أين كان المايسترو قبل الحفل ؟! لماذا تأخر ؟! وأى زيارة أسرية تلك التى تحدث عنها تلميذه (ياسر مدكور) ؟!
- أين اختفت (حنان) ؟! ولماذا يتخفى (ياسر) على مكان وجودها ؟!
- من دبر الحادث ؟!

هل هو (ياسر) فعلاً ؟! هل هو بهذا الحمق والسذاجة ليرتكب خطأ فادحًا مكن الشرطة من كشف أمره بهذا اليسر ؟!

أم هى (حنان) ؟! ولماذا ؟! لماذا تريد توريط (ياسر) ؟!

أم يكون شخصًا ثالثًا ؟!

هذا أقرب للمنطق .. ولكن .. من ؟!

دائرة مفرغة لابداية لها ولانهاية ..

ثم .. هذه الصورة فوق شاشة الحاسب الآلى ، قال السيد (س) أن حل اللغز يكمن فيها .. أى حل يمكن أن يكون فى لوحة دعاية عادية لحفل (دقات الفزع) ـ رائعة المايسترو (سليم حجاب) الجديدة ؟!

إن المايسترو يقف فيها تحت كشاف الإنارة .. ولكن مامعنى هذا ؟!

لقد سقط الكشاف على أم رأسه مسببًا كسرًا فى الجمجمة فمات .. أى حل للغز فى هذا التسلسل البديهى البسيط ؟!

لا أرى فى اللوحة أى شىء غير عادى ، حتى التكوين الخلفى الجامع لعدد من الآلات الموسيقية المتناثرة فى عشوائية ، لا أجد فيه مايمكن اعتباره خيطًا يقودنى للحل ..

أى حيرة ، وأى صداع !

بين الأوراق البيضاء وشاشة الكمبيوتر لم أعثر على

مايمكن عمله ، أنها الثالثة عصرًا الآن ولما يفى (هشام) بوعده بعد ، لقد وعدنى بأن يحادثنى هاتفيًا بعد الانتهاء من استجواب (ياسر) فلماذا تأخر .... ؟!

ها هو ذا رنين الهاتف أخيرًا ..

ـ آلو ...

ـ مساء الخير ياصغيرتى ..

هو .. السيد (س) .. مازال لسانى ملجمًا أمامه ..

ـ .. تقودك خطواتك كالمعتاد نحو طريق مسدود ..

ـ هل هو (ياسر) بالفعل ؟!

سألته بعد عناء ، فضحك مجيبًا :

ـ الصغار دومًا على عجل .. لقد ضللتك أقصوصة (شبح الأوبرا) يافتاة ..

ضللتنى ؟!

هتفت باستنكار ، أليس هو من دلنى عليها ؟! إنه من ضللنى إذن ..

لكن هيهات وقتها أن أستطيع قول هذا له ..

ها هو ذا رنين الهاتف أخيرًا .. ـ الو ....
ـ مساء الخير يا صغيرتى .. هو ؟! ..

ـ أوأنك أنت من ضللتها ..

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ تسيرين فى الجهة الخاطئة مثل الجميع ..

ـ وأين الجهة الصحيحة ؟!

ـ عند أمير الأنغام ..

ـ (سليم حجاب) ؟!

ـ (بتهوفن) !

ـ .... !

ـ لقد عاش مثله ، ومات مثله !

ـ لكن ....

ـ توت .. توت .. توت ..

ذهب السيد (س) ، وبقى اللغز ..

هل أسمع صوت باب المنزل يفتح ؟!

لدى الآن خيط واه لابد من تتبعه ..

ـ حبيبتى .. هل أنت هنا ؟!

صوت أبى .. هذا رائع ، يمكننى إذن الاستعانة بسيارته ..

هيا إذن دون لحظة تأخير واحدة ..

★ ★ ★

المكتبات العامة لاتغلق أبوابها قبل السادسة مساءً ، لحسن حظى ..

حسنًا ، ماذا لدينا ها هنا ؟!

(المجموعة الكاملة لمراسلات بتهوفن) .. كلا .. لن يفيدنى هذا ..

(مذاكرت بتهوفن) .. ولا هذا .. لن أجد فيه ما أبحث عنه ..

(نقد أعمال بتهوفن) .. كلا .. كلا ..

(حياة لودفيج فان بتهوفن) .. ربما أجد ضالتى المنشودة فى هذا ..

حملت السفر الضخم ووضعته فوق منضدة القراءة ، بحثت فى الفهرس عن الفصل الأخير (وفاته) وفتحت الصفحة المرموقة .. وأخذت أقرأ ..

« .... واتصلت آلامه على هذا النحو إلى آخر أيام حياته .. (...) .. وفى العام الذى أخرج فيه للدنيا سيمفونيته التاسعة المعروفة بأنشودة السلام بدأ مرض كبده يظهر فى شكل محزن منذر بالخطر .. (...) .. وحدث فى أول ديسمبر ١٨٢٧ أن ذهب يزور أخاه فى (جنايكزنبرج) .. (...) .. ولم يشق إنسانٍ كما شقى (بتهوفن) بأقاربه جملة وكان أخوه (يوهان) رجلاً قليل الخير .. (...) .. ويبدو أنهما اختلفا فى أمر فمضى عنه (بتهوفن) مغاضبًا ، وركب فى عربة مكشوفة والمطر ينهمر ، فلم يصل إلى داره فى (فينا) إلاوقد ملأ البرد رئتيه وأصابه فى مقتل .. (...) .. وفى ٢٣ ديسمبر زاره الأطباء فاستشعر من هيئتهم قلة الأمل فلم يكادوا يخرجون من عنده حتى نظر إلى عائديه وردد آخر عباراته على فراش الموت : صفقوا أيها الأصدقاء ، لقد انتهت المهزلة ! (...) .. وفى الساعة السادسة من مساء ٢٦ ديسمبر صعدت روحه إلى بارئها بعد احتضار مضن دام قرابة اليومين .. »(*)

الأمر هكذا إذن ..

إلى المباحث الجنائية يا (نسرين) دون لحظة تأخير واحدة ..

★ ★ ★

(*) فقرة مقتبسة عن د . (حسين مؤنس) ـ كتاب (صور من البطولات العربية والأجنبية) ..

ـ لقد خرج دافعًا الكفالة !

قالها (هشام) فى لامبالاة بعد أن سألته عن (ياسر) ، لقد قرر ارتداء قناع السماجة على ما يبدو لكنى لها حتى الرمق الأخير ..

ـ وهل كنت سأنتظر حتى منتصف الليل لأتلقى منك مكالمة ؟!

واصل (هشام) سماجته بكفاءة نادرة يحسد عليها :

ـ لم نجد فى أقواله أى إضافة ..

مادام هو البادئ ـ والبادئ دومًا أظلم ـ فلن أخبره بما لدى ، وسأثبت له أننى أكفأ منه عندما يتعلق الأمر بالسماجة ..

ـ وهل من الممكن أن آخذ عنوانه ؟!

قطب سائلاً فى انزعاج :

ـ ولماذا ؟! هل تنوين الذهاب إليه ؟!

لم أنس أنه غيور ، ولم أتوقع أن يعطينى العنوان ، فقط كنت أثبت أننى الأكفأ عندما يتعلق الأمر بالسماجة ..

ـ كلا .. لن أذهب إليه ولا أريد العنوان ..

ونهضت تاركة له الغرفة ، وأنا واثقة من أن النيران تشوى قلبه .. لقد شممت رائحة الشواء التى لا تخطئها الأنف الأنثوية ..

لكنى كنت أريد العنوان بالفعل ..

إلى (دار الأوبرا) إذن دون لحظة تأخير واحدة ..

★ ★ ★

من سجلات (دار الأوبرا) .. وبقليل من الحظ ، كثير من الإلحاح ـ حصلت على عنوان (ياسر مدكور) ، لو كان يملك هاتفًا لكانت المهمة أسهل بكثير ..

لكن الصحافة هى المهنة الوحيدة التى يبحث فيها المرء عن المتاعب والمصاعب ..

إلى (ياسر مدكور) إذن دون لحظة تأخير واحدة ..

★ ★ ★

فتح لى الباب بنفسه ، لقد استحم فور فراغه من الاستجواب على ما يبدو ، وكان يستعد للنوم ، الإرهاق البادى على ملامحه السمراء أخبرنى بهذا ..

ـ مساء الخير ، آسفة للإزعاج ..

ابتسم نصف ابتسامة وهو يسألنى :

ـ هل من خدمة ؟!

قلت متحلية بالشجاعة :

ـ أجل .. لدى المزيد من الأسئلة ..

ـ متأسف ، كل ما لدى قلته فى التحقيق ..

ـ أريد استكمال بعض نقاط تحقيقى أنا !

.. وكأنه مضطر !

ـ متأسف مرة أخرى ، إننى أسكن بمفردى ولن أستطيع دعوتك للدخول ..

ـ هذا مفهوم .. أنت من سيأتى معى يا سيد (ياسر) ..

سألنى مستخفًا :

ـ إلى أين ؟!

.. وكانت رمية من غير رام ..

ـ لنزور شقيق المايسترو الراحل ..

تجمدت ملامحه ، لقد كان السيد (س) محقًا إذن ..

كيف عرفتِ ؟!

قلت فى نبرة ظفر :

ـ للصحفى مصادره الخاصة !

ـ هل معكِ سيارة ؟!

هززت رأسى أن نعم وسألت بدورى :

ـ المكان بعيد ؟!

ـ هذه الأمور نسبية كالحقيقة !

ـ أين ؟!

ـ شارع (محمد على) ..

ـ سأنتظرك بالأسفل ..

ـ دقائق وأكون ارتديت ملابسى ..

إلى شارع (محمد على) إذن دون لحظة تأخير واحدة !

★ ★ ★

لا يحمل الشارع الكثير من الوقار المقترن باسم صاحبه ، القائد العسكرى الألبانى الأصل الذى أصبح فجأة والى

(مصر) والذى اقترن اسمه فى كتب التاريخ بأشهر مذبحة للمماليك تمت بين أسوار القلعة ، (محمد على باشا الكبير) ..

لكن هذا لايعنى بالضرورة أن الشارع قد انزلق إلى هوة الابتذال والأوحال ، لم يحدث هذا برغم ما اشتهر به من ليالى الأنس ومقاهى (الآلاتية) ودكاكين (المزيكا) وأوكار (العوالم) ، لقد احتفظ الشارع ـ برغم كل شىء ـ بهذه اللمسة الأصيلة من الشجن النبيل ، وبهذه الذكرى الفواحة من روائح الزمن الجميل ..

ـ هنا ..

ضغطت بقدمى دواسة الكابح ، وأرسلت بصرى بعدها إلى حيث يشير (ياسر) ، ليطالع بناية صغيرة متهالكة ـــ فى الغالب آيلة للسقوط ـ مكونة من دورين ، يحتل الطابق الأرضى محل لبيع الآلات الموسيقية من (دفوف) و(أعواد) و(نايات) و(كمنجات) وخلافه ، وتطل من الطابق العلوى مشربية تآكل طلاؤها البنى ، وارتكزت على حافتها صينية من الألومونيوم حوت قلة من الفخار يجرى تبريد ما تحويه من المياه ..

سألت فى استغراب لم أخفه :

ـ شقيق المايسترو (سليم حجاب) يسكن هنا ؟!

أجابنى (ياسر) بنصف الابتسامة المعهود :

ـ ستتعجبين أكثر إذا علمت أن المايسترو ولد هنا وترعرع هنا ..

فعلاً تعجبت أكثر ، وقبل أن أستعد للنزول نظرت إلى ساعة معصمى ، إنها السابعة مساءً ، ذهب الغروب وحل الظلام ولايجب أن أتاخر لأكثر من ساعة واحدة .. ساعة واحدة فقط ..

على ضوء مصباح وحيد صعدت خلف (ياسر) فى درجات السلم الحلزونى الصاعد ، هذا المنزل معرض للانهيار بين لحظة وأخرى ، إن تاريخ بنائه قد يرجع إلى عهد (محمد على باشا) نفسه !

أدت الدرجات إلى باب وحيد متهالك من النوع القديم ذى الشراعة ، استعد (ياسر) لطرقه لكنه أحجم فى اللحظة الأخيرة ، والتفت نحوى كمن تذكر أمراً فجأة ، قال :

ـ لاتذكرى أمامه ماجرى للمايسترو ..

ـ لماذا ؟! ألم يسمع بالخبر بعد ؟!

ـ نعم ، لم يسمع .. وأخشى أن تسوء حالته لو عرف ..

ـ أهو مريض ؟!

ابتسم نصف ابتسامة ولم يرد ، وسارع بطرق زجاج الشراعة بأطراف أصابعه ..

ـ من ؟!

صوت طفلة لم يهذبه التحضر بعد ..

ـ أنا يا (توحيدة) ..

ـ سيدى (ياسر) .. يا أهلاً .. يا أهلاً ..

وسارعت بفتح الباب لتطالعنا قامتها القصيرة وجلبابها المتسخ والطرحة فوق الرأس ، سألها (ياسر) على الفور :

ـ أين الشيخ (سلامة) ؟!

(سلامة حجاب) و(سليم حجاب) ، الاسمان بهما نوع من التآلف يليق بأخوين ، لكن لقب (شيخ) ألقى فى أذنى رنينا غير مألوف وغير متوقع ..

ـ لابد أنه قد فرغ من صلاة العشاء .. تفضلا ..

دخلت ـ خلف (ياسر) الذى بدا كواحد من أهل الدار ـ

وعيناى تلتهمان كل ماتراهما ، الحوائط ذات الطلاء المتآكل ، الأرائك (الأرابيسك) العتيقة ، الصور ذات التدرج الرمادى المعلقة فوق الحوائط كأنها فى متحف يصور أجواء بدايات القرن العشرين ، السجاجيد القديمة التى لم يعد التنظيف مجديًا فى شفط ماتراكم فوقها من طبقات الغبار الأسود ، كل شىء قديم .. قديم ..

ـ ضيوف يا شيخ ..

قالتها الصغيرة (توحيدة) ثم مضت ، كان (ياسر) يقف أمام باب الغرفة التى يطل منها الضوء ، بينما أحجمت أنا عن الظهور لعينى الشيخ (سلامة) تخوفًا من رد فعله عندما يرانى ، فى الغالب سيكون حاد الطباع مثل (سليم) .. أو ليسا شقيقين ؟!

ـ مساء الخير يا شيخ (سلامة) ..

قالها (ياسر) مستبشرًا ولما تخط قدماه إلى الداخل ، فأتى الصوت الجهورى الذى بدا ـ بعكس ما توقعت تمامًا ـ ودودًا مرحبًا :

ـ مرحبًا يا فتى ..

ترى هل سيظل صوته بهذا الود المرحب عندما يرانى ؟!

ـ .. مرتان فى يوم واحد ؟! هل طردك سيدك أم ماذا ؟!

لقد كان (ياسر) هنا اليوم إذن .. لكن ، متى ؟! ولماذا ؟! و ....

قال (ياسر) ضاحكًا :

ـ أنت سيدنا وولى نعمتنا يا شيخ ..

سمعت صوته الجهورى يقول ضاحكًا هو الآخر :

ـ يالك من منافق مخادع .. هل معك أحد ؟!

التفت (ياسر) نحوى وقال باسمًا ـ لأول مرة أرى ابتسامته كاملة :

ـ أجل .. معى زائر ..

ابتلعت ريقى بصعوبة ، حانت لحظة المواجهة الرهيبة ..

ـ تقصد زائرة ؟!!

كيف عرف ؟! تبدو بداية باعثة على الوجل والإحجام ..

ـ أجل .. زائرة .. يبدو أن رائحة عطرها واضحة ..

إن يد (ياسر) الممدودة تدعونى للدخول بلاشك .. لكن ..

واصل (ياسر) :

ـ إنها صحفية نشطة طلبت منى أن أصحبها إليك ..

دخلت ـ وعيناى مصوبتان نحو الأرض ـ أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، وعندما رفعتهما ..

ـ صحافة ؟!

هتف بها الشيخ (سلامة) بصوته الجهورى ، وعندما رفعت عينى نحوه أذهلتنى المفاجأة ..

ـ .. ومنذ متى كنت مثار اهتمام للصحافة ؟!

لم يكن ذهولى بسبب السمة المرتسحة على شفتيه ، ولا بسبب الجلباب النظيف الذى يرتديه مع قبعة أسطوانية من نفس القماش ، ولا بسبب ملامحه التى شابهت إلى حد كبير ـ لم يصل لحد التطابق ـ ملامح المايسترو الراحل ..

السبب كان هذه المنظار الأسود الذى يخفى عينيه ..

وإذا أضفنا لهذا شخوصه المستمر نحو سقف الحجرة ، لبات السبب أوضح من واضح ، وهو ما لم أتوقعه بالمرة ..

إن الشيخ (سلامة حجاب) ضرير !

* * *

٨ ـ المصير ..

لم أنجح فى ابتلاع المفاجأة بسرعة ، ظللت متسمرة فى وقفتى عند مدخل الحجرة أحاول فهم ما حولى ، وسمعت صوت (ياسر) من خلفى يقول :

ـ لقد عَرَفَت أنك شقيق المايسترو (سليم حجاب) ..

اختفت الابتسامة من فوق ملامح الشيخ (سلامة) ليحل محلها انفعال أشبه بالانزعاج ، ظهرت التجاعيد فى منحنيات وجهه بارزة ، لابد أنه أكبر سنًا من شقيقه ..

ـ هل كشف (سليم) السر ؟!

غمغم بها الشيخ (سلامة) فى نبرات كسيرة ، إنه موسيقى هو الآخر ، لامعنى لهذا العود الخشبى اللامع المعلق فوق الأريكة التى يجلس عليها سوى أنه موسيقى ، ولامعنى كذلك لصورة (سيد درويش) بملامحه الحزينة وشعره الهائش المعلقة فى هذا الركن سوى أنه يعشقه ..

تنحنحت ـ وقد تجاوزت الصدمة ـ لأقول محاولة صبغ نبراتى بصبغة الشجاعة :

ـ ومنذ متى كانت الأخوة سرًا ؟!

صمت مليًا ، ليقول فى النهاية :

ـ هو أرادها أن تظل هكذا ..

هل يتظاهر بالبراءة والنقاء ؟! قرون استشعارى تقول لا ، لكنى لست خبيرة فى مجاهل النفس البشرية لحد ادعاء التمييز بين الحقيقة وما سواها ..

ـ .. تفضلا بالجلوس ، أنت ضيفة ولابد من اتباع واجبات الضيافة ..

ثم رفع عقيرته بالنداء :

ـ بنت يا (توحيدة) .. ثلاثة أكواب من الشاى بسرعة يا بنت ..

جلست على أريكة مكسوة بغطاء أبيض وبجوارى (ياسر) ، وسارعت أقول حتى لايفلت منى خيط الحوار :

ـ كنت تقول إن السيد (سليم) أراد أن تبقى أخوتكما سرًا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا وهو يقول وقد استعاد صوته جهوريته :

ـ أى نعم ..

ـ ولماذا ؟!

ـ اسأليه ، برغم أنه الأصغر إلا أنه الأشهر والأعظم والأكثر تأثيرًا ..

لن أهجم الآن ، سأتبع سياسة الكر والفر ..

ـ هل تعرف (العود) يا شيخ (سلامة) ؟!

استعاد ابتسامته أخيرًا وهو يقول بوجد :

ـ إنه عشقى الأثير ، لقد علمت (سليم) العزف عليه ولما يبلغ السادسة من عمره ..

سألته فى حذر :

ـ ثم اختلفتما ؟!

تلاشت بسمته بسرعة وهو يستطرد مستعيدًا ذكريات غير محببة :

ـ افترقنا عند أول مفترق للطرق ، لقد كنت أعمل عازفًا فى الأفراح والليالى الملاح من أجل أن أعلمه الموسيقى فى (الكونسرفاتوار) ، كانت مصروفات تعليمه تلتهم دخلى بأكمله لكنى لم أبال ، قلت لنفسى إن البذرة لابد أن توضع فى

أرض خصبة حتى تثمر أشجارًا ورياحين ، وفى سبيل ذلك تهون كل الصعاب ، لم أكن أعلم وقتها أن حساباتى كانت خاطئة تمامًا ..

لاحت سحابات الندم والألم على وجهه وهو يتابع :

ـ ظننت أن موهبته البكر ستعود لمنابع إلهامها الأولى ، كنت أحسب أن جذوره ضاربة فى أرض النغم الأصيل حتى إنه يستحيل اقتلاعها ، عندما سافر فى بعثة المعهد إلى (إيطاليا) ليتلقى المزيد من العلم والنور قلت إنه سيعود لتسخير كل ما تعلمه فى سبيل إحياء ما اندثر من النغم الشرقى ، ومن أجل خلق مساحات جديدة من الإبداع فى اتجاه الأصالة التى حرصت على أن أسقيه إياها بالملعقة فى كل يوم، لم أكن أتصور أن النداهة الغربية سوف تسيطر عليه لينسى الماضى ، ولينبهر بفنون ما أنزل الله بها فى بلادنا من سلطان ..

كان قدا انفعل لدرجة الصياح ـ كأنه محام فى محكمة ـ وهو يقول :

ـ لقد خدعوه باسم الفن الراقى حتى ظن أن الفن الذى تعلمه فى الصغر محض خرافة بلا أساس ، نسى أبسط البديهيات

التاريخية ، أن الحضارة بدأت هنا ، أن قدماء المصريين عرفوا الموسيقى وقت أن كانوا هم هناك فى كهوف جهلهم وتخلفهم ،وأن (الكندى) و(المغاربى) و(ابن سينا) و(إسحق الموصلى) و(زرياب) هم من وضعوا الأسس الأولى للعلم الذى يدرسونه فى معاهدهم ، وللنهضة التى ألقت للعالم بالسميفونيات الكلاسيكية والرومانسية والحداثية ، نسى أن (الفلوت) أصله (ناى) ، وأن (الجيتار) أصله (عود) ، وأن (الكمان) أصله (ربابة) وأنه ما من آلة فى العالم تستطيع أوتارها التعبير أكثر وأصدق وأعمق من (القانون) ، أصبح منهم قلبًا وقالبًا وعاد مبشرًا بتعاليمهم وسائرًا على المنهج الذى وضعوه له ، وهكذا ضاع مجهودى فى تنشئة فنان موهوب هباءً ..

شعرت أنه صادق للغاية ، وأنه محق أيضًا للغاية ..

واصل ساخرًا :

ـ والأدهى أنه حاول اجتذابى بعيدًا عن هذا الدار لأعمل معه فى بيت الشياطين المسمى بـ (الأوبرا) ، لكنى رفضت بالطبع ..

سألته بعد لحظة من التردد :

ـ متى زارك آخر مرة ؟!

ـ البارحة !

صدق السيد (س) إذن .. ولكن ..

ـ ولماذا ؟!

ـ من الأفضل أن تسأليه فى هذه النقطة بالتحديد ..

تبادلت نظرة مع (ياسر) وأنا أقول :

ـ للأسف ، لن يكون هذا ممكنًا ..

ثم إنى سألته ناظرة نحوه :

ـ هل عرض عليك العمل معه مرة أخرى ؟!

تنهد الشيخ (سلامة) بعمق ثم قال :

ـ على العكس تمامًا ، البارحة بالذات كان شخصًا آخر ، أتى ليقول إنه يريد أن يسدد الدين الذى فى عنقه نحوى ، جلس معى لأكثر من ثلاث ساعات كاملة ، تبادلنا الذكريات و ....

ابتسم الشيخ (سلامة) عند هذه النقطة وتابع فى نشوة :

ـ غنى معى على نغمات (العود) .. تصورى !

هذا خارج عن نطاق توقعاتى تمامًا !

وارتفع صوت العزف على الأوتار ، ثم غناء الشيخ (سلامة) المفعم بإحساس فنان حقيقى ..

ـ سأسمعك جزءًا مما غنيناه .. ناولنى (العود) يا (ياسر) ..

وبمجرد أن نهض (ياسر) انقطعت الكهرباء عن الحى باكمله ..

ـ رباه .. كم أخشى الظلام !

ـ أين (العود) يا ولد ؟!

هتف بها الشيخ (سلامة) فقال (ياسر) فى حرج :

ـ لقد انقطعت الكهرباء يا شيخ .. لا أرى شيئًا ..

ـ خيبة اللّه عليك .. سأنهض أنا ..

شعرت بـ (ياسر) يتحسس خطواته فى الظلام ليجلس فى مكانه بجوارى من جديد ، بينما سمعت صوت تحرك الشيخ (سلامة) قبل أن يغمغم :

ـ هذه فائدة أن تعيش فى ظلام دائم ..

وارتفع صوت العزف على الأوتار ، ثم غناء الشيخ (سلامة) المفعم بإحساس فنان حقيقى ..

يا صهبجية .. إيه يا لالى ..

عايزين شوية .. إيه يا لالى ..

حاجة م اللى هية .. إيه يا لالى ..

حبة آهات على ليل على عين على يا لالالى ..

عادت الكهرباء فور انتهاء الشيخ (سلامة) من غنائه ، صفق له (ياسر) ففعلت مثله ، أتى الشاى وأنا أحاول فهم كل هذا الذى يجرى حولى ..

ألا يبدو كل شىء عبثيًا أكثر من اللازم ؟!

ـ أبلغوه سلامى ، وحاولا إقناعه بالعودة إلى الأصل إن استطعتما ..

قالها الشيخ (سلامة) وقد نهضنا نودعه ، ثم تابع فى أمل :

ـ لقد بدا لينا نوعًا ما بالأمس !

* * *

أكره هذه النوعية من القضايا ..

كلما تقدمت فيها خطوة للأمام ، كلما أوغلت فى مسارب الغموض واللامنطق ..

لقد انهارت نظرية التآمر من قبل أن تبنى ، لا يمكن أن يكون الشيخ (سلامة) قد دبر مقتل شقيقه الأصغر بالتعاون مع (ياسر) و(حنان) ، إذ ما الدافع ؟!

ثم إنه لا يبدو مثل (يوهان) شقيق (بتهوفن) بأى حال من الأحوال ..

أين القطعة الناقصة إذن فى هذا اللغز المحير ؟!

ربما لو عثرت على (حنان) ..

كلا .. كلا .. إننى أشعر بأننى اقتربت من الحل ، ولا علاقة له بـ (ياسر) أو (حنان) أو حتى الشيخ (سلامة) ، كما لا علاقة له بـ (شبح الأوبرا) و (بتهوفن) ، إن الحل يكمن فى شىء ما يقع فى الركن المظلم من عقلى ، شىء أعرفه معرفة يقينية ، لكنه كالزئبق يهرب من بين أصابعى كلما حاولت القبض عليه ..

متى تتم لحظة التنوير إذن ؟!

لا أفكر الآن فى كيفية إقناع أبى أن الأمر يستحق تأخرى حتى الثامنة ، ها قد وصلت وأطفأت محرك السيارة وترجلت منها بسرعة ، وها هو ذا نداء عم (خضر) البواب يأتينى من ناحية مدخل البناية ..

ـ (نسرين) هاتم .. يا (نسرين) هاتم ..

ـ نعم يا عم (خضر) ..

مدّ لى (البيه بواب) يده بمظروف مغلق ليقول مبتسمًا :

ـ أحدهم ترك لك هذا وانصرف ..

ـ شكرًا ..

اختطفت المظروف من يده وفضضته ، وحاول هو بفضول صريح أن يسترق النظر إلى ماخط فى الورقة الصغيرة التى أخرجتها من داخله ..

كما توقعت .. لقد ظهر فى الوقت المناسب كعادته ..

عود أحمد ياسيد (س) ..

صغيرتى

ما زلت تسلكين الاتجاه الخاطئ ..

لقد مات كما قضى (بتهوفن) المرة الأولى ..

لا الثانية !!!

س

بالفعل أنار لى جزءًا مظلمًا فى عقلى ..

شكرًا يا سيد (س) ، وعذرًا أبى .. حاول احتمال قدر بسيط آخر من التأخير ..

أما أنت يا عم (خضر) ، فلا شكر ولا عذر !

★ ★ ★

بعض المكتبات العامة يظل مفتوحًا حتى العاشرة مساءً ، لحسن حظى ..

(حياة لود فيج فان بتهوفن) من جديد .. بحثت فى الفهرس عن الجزء الخاص بـ (مرضه) ، وشرعت أقرأ بينما أضواء خاطفة تسطع هنا وهناك فى جنبات عقلى ..

★ ★ ★

(... بل ويشاع عنه أنه يعانى الصمم مثله أيضًا ...) !

★ ★ ★

(ـ فى أى جريدة تعملين ؟!

ـ (الأربعاء) ..

ـ ماذا ؟!

ـ (الأربعاااء) !

★ ★ ★

« هنا كانت مأساة حياته الكبرى ، بدأ (بتهوفن) يحس ضعف سمعه ، وكان اذ ذاك فى عنفوان عمله وإنتاجه .. (...) .. وربما خفف وقع هذه الكارثة أنها أتت على مهل

ولم تقع مرة واحدة .. (...) .. وجاهد (بتهوفن) ذلك كله جهادًا متصلاً ، وكانت آلام نفسه كلما زادت معها حماسته فى العمل وزاد إنتاجه دقة وصفاءً وحساسية .. (...) .. وكتب فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ وصية يودع بها الناس ويقول .. (...) .. إلى هذا الحد بلغ يأسه ومرارته بالحياة فى لحظة فاض فيها إلهامه وإنتاجه حتى عد أعجوبة من أعاجيب الزمان ... »(*) !

إن الحقائق تتجمع فى عقلى واحدة تلو الأخرى ..

أكاد أرى الصورة بمنتهى الوضوح ..

★ ★ ★

(ـ لن تفزع الدقات أحدًا سواه ...) !

★ ★ ★

(ـ من ؟! الشبح ؟!

ـ المايسترو (سليم حجاب) بنفسه ...) !

★ ★ ★

(★) د . (حسين مؤنس) ..

(إنه يفضل اللون القرمزى على ما يبدو ...)

(... دون أن يدريا أن الشبح المتشح برداء أحمر قرمزى جعل البعض يطلقون عليه (الموت الأحمر) قد علم بكل شىء ...) !

★ ★ ★

(... حل اللغز يكمن فى هذه الصورة ...) ..

لم يكن المقصود هو كشاف الإنارة يا (نسرين) .. لقد قصد ..

نعم ، لابد أن هذا هو مقصده .. إن هذا ما يجعل للمايسترو سلطة على أفراد فريقه ، إنه ما يصنع منه (مايسترو) فعلاً ..

إلى المباحث الجنائية إذن عسى أن يكون استنتاجى فى محله ..

(... مرتديا الحلة السوداء بسترتها الطويلة ذات الذيل المفروق وممسكًا فى يده بعصا القيادة ، وهناك بقعة ضوئية مسلطة عليه من كشاف ...) !

★ ★ ★

رفع (هشام) الكيس البلاستيكى المغلق أمامى وهو يقول بغير فهم لمقصدى :

ـ ها هى ذى ... إنها من ضمن أحراز القضية كما أخبرتك ..

برقت عيناى وأنا أمسك الكيس قائلة فى إبهام :

ـ إن فيها حل اللغز بأكمله لو صدق حدسى ..

ـ وكيف لهذه العصا أن تكون حل اللغز ؟!

ألقيت نحوه بالكيس فالتقطه بمبهارة ، وقلت :

ـ أخرجها وسأريك ..

قطب قائلاً :

ـ إنها مسئولية جسيمة ..

ـ تحملها من أجلى !

بعد تفكير حسم أمره :

ـ ليكن ..

وأخرج عصا قيادة الأوركسترا من كيس التحريز بحرص ، ثم مد يده بها إلىّ ..

ـ أرينى كيف يمكن أن تحوى حل اللغز بأكمله ..

ـ سأريك ..

لا أدرى من أين واتتنى الثقة لأن أقوم بفك قمتها محافظة

على هدوئى برغم دقات قلبى التى علت وتزايدت ، ثم أقوم بإخراج لفافة ورقية صغيرة من داخلها لأبتسم فى النهاية ابتسامة النصر ..

وليسقط فك (هشام) السفلى فى بلاهة !

★ ★ ★

بخط يده كتب المايسترو هذه الكلمات ، مقتبسًا إياها من وصية (بتهوفن) التى طالعت نصها من فورى فى الكتاب الذى روى قصة حياته ..

« أيها الناس ! يا من تحسبون نفسى محملة بالعداوة والعناد والكراهية لكل البشر .. كم تخطئون فى حقى ! إنكم لاتعلمون سر ما يبدو لكم منى وأسبابه ، لقد كانت نفسى منذ طفولتى أميل ما تكون إلى اللين والرقة ، ولقد حاولت تحقيق ذلك ما استطعت ، لكن الدهر رمانى منذ ست سنوات فى جحيم لامخلص منه ، وقد بذلت جهدى لأنجو من ذلك ولكننى لم ألبث أن ارتددت بسبب ما منيت به من سوء حال سمعى ..

« أيها الناس ! لو قدر لكم ذات يوم أن تقرءوا هذه السطور فاذكروا أنكم لم تكونوا عادلين معى ، وليتعز التعساء منكم بما جرى لواحد منهم حاول برغم كل العقبات أن يجد لنفسه مكانًا بين الفنانين والناس المحترمين .. ولكن لابد مما ليس منه بد ..

« إننى أتعجل الطريق إلى الموت فى سرور ..

سليم حجاب » ..

★ ★ ★

لم يعد فى الأمر أدنى قدر من الشك ..

لقد انتحر المايسترو (سليم حجاب) مقدمًا على ما أحجم (بتهوفن) نفسه عن ارتكابه !

★ ★ ★

(ـ سيفنى الخلود ...) ..

★ ★ ★

(ـ لا يدهشنى هذا ... إننا نعانى قصورًا أمنيًا رهيبًا هاهنا ...) !!

★ ★ ★

(ـ إن لدى الكثير جدًا لأقوله ...) !!

★ ★ ★

٩ ـ بداية ونهاية ..

الآن ـ وقد اكتملت صورة الأحداث وترتبت فى خلايا قشرة مخى ـ أستطيع أن أكتب ..

ليكن عنوان التحقيق (انتحار المايسترو) !

لا .. هذا تقليدى أكثر من اللازم .. لأجعله (سر دقات الفزع) !!

مازال تقليديًا ؟! أعتقد هذا أنا الأخرى ..

ما رأيكم فى : السيد (س) و(شبح الأوبرا) و(دقات الفزع) !؟!

وبأسفلها ببنط أصغر السؤال التالى : من قتل المايسترو (سليم حجاب) ؟!

يبدو هذا مرضيًا إلى حد بعيد ، لأجلس الآن وأعيد صياغة الأحداث فى عقلى توطئة لترجمتها إلى حروف وكلمات فوق السطور الخالية ..

إنه الصراع المزدوج المعتاد الذى نشب فى أعماق

المايسترو منذ ترك شارع (محمد على) وسافر إلى (إيطاليا) بعد دراسة الموسيقى فى (الكونسرفاتوار) ، ازد واجية الهوية القديمة المتمثلة فيما زرعه شقيقه الأكبر فى أعماقه ، والهوية الحديثة التى رآها تتحقق فى إبداعات المدارس الأوروبية ، الصراع الآبدى بين (التخت) و (الأوركسترا) ، بين حنين إلى ماض يجرفه وحاضر يستطيع أن يحقق فيه كل ما يمور فى أعماقه من طموحات فنية ..

وكان الاختيار، فقطع أواصر قرابته بماضيه ، وانغمس حتى النخاع فى حاضره مبدعًا عددًا من المقطوعات والسيمفونيات الرومانسية التى التهبت لها أكف محبىّ هذا النوع من الفنون تصفيقًا ، ولهجت بها ألسنتهم مدحًا وتقريظًا ، لكن جزءًا ما فى أعماقه ظل مرتبطًا بهذا القديم الكامن فى خبايا نفسه ، ولعل هذا هو ما جعله على الدوام فظًا غليظًا مع الصحافة والجماهير المعجبة ..

حقق المايسترو الكثير مما كان يصبو إليه ، المجد والشهرة والثراء ، تزوج مرتين كما يقول تاريخه الشخصى، لكن الصراع لم يخبُ داخله أبدًا ، ظل مشتعلاً يكدر عليه

صفو حياته ، ويقض عليه فى الليل مضجعه ، فما كان منه إلا أن قرر وضع حد لمعاناته النفسية وألمه الداخلى المبرح ، بطريقة تليق به كأسطورة فنية ..

اعتكف عامين صنع خلالهما (دقات الفزع) ، وبرغم عزفها الذى لم يكتمل ليلة أمس إلا أن النقاد وصفوها فى صحف اليوم بأنها معجزة لن تتكرر فى عالم الموسيقى (لكل فن من يقدر عبقريته بالتأكيد !) ، وكان يعلم هذا لاريب ، كان يعلم أنها ستمنحه ما يصبو إليه من خلود فنى، إذ ستحمل من روحه ووجدانه ورؤاه وفلسفاته ما يجعلها تعلق بآذان محبيه كالوشم إلى أبد الآبدين لكن هذا لم يكن ليكفيه ، لقد كان يصبو إلى خلود من نوع آخر ..

خلود لا يتحقق إلا من خلال الموت أمام جماهيره الحاضرين فى المسرح وأمام شاشات التلفزيون ..

(سيفنى الخلود) ..

يتسع الكادر هنا ليدخل فيه وجه (ياسر مدكور) البيضاوى الأسمر كزيتونة ، إنه تلميذه المقرب وخليفته فى ملاعب النغم الكلاسيكى ، حتى إنهم شبهوه بـ (فرانز شوبرت) الذى ولد بعد (بتهوفن) بسبعة وعشرين عامًا ومات

بعده بسنة واحدة ، إذ إن الأخير قال له وهو يئن محتضرًا فوق فراش المرض :

ـ أنت وريثى الروحى !

لا أحد يدرى مدى العلاقة التى كانت تربط بين المايسترو وتلميذه ، يبدو أنها كانت من النوع المعقد الذى لايمكن فك طلاسمه بسهولة ، فبرغم أن الهمسات دارت حول العلاقة العاطفية التى جمعت (ياسر) بـ (حنان) ، إلا أن هذا لم يمنع (سليم حجاب) من قبول تقربها منه ، وحتى لو كان الأمر مجرد نزوة فنية فهذا يضع حول المسألة المزيد والمزيد من علامات الاستفهام ..

إنه مثلث غامض أركانه (ياسر) و(حنان) و(سليم) ، تيمة (امرأة ورجلان) المكررة فى تباديلها وتوافيقها الكثيرة ، لكن هذا المثلث بأى حال لم يكن هو مفتاح اللغز ..

مفتاح اللغز الحقيقى كان فى الصمم الذى بدأ يأكل أذن المايسترو وليحيل حياته جحيمًا ، تمامًا مثلما حدث مع (بتهوفن) وهو ما جعله يفكر فى الانتحار عندما كان فى أوج مجده وتألقه ، إنها لم تكن إشاعة لا أساس لها يتشدق بها رواد (الأوبرا) بل كانت حقيقة لم تجد من يؤكدها ..

(ولم يتم التأكد إلا فى تقرير الطبيب الشرعى الخاص بتشريح جثة المايسترو ، الذى أثبت صحة احتمالى بعد أن نشر التحقيق فعلاً !) ..

وهكذا خطط المايسترو بذكاء ضاربًا عدة عصافير بحجر واحد :

أولاً : سيتخلص من آلامه النفسية الرهيبة ..

ثانيًا : سيتخلص من الصمم الذى قد ينهى مستقبله الموسيقى تمامًا ..

ثالثًا : سيصنع من نفسه أسطورة لاتنسى كمايسترو يقضى نحبه وهو يقود الأوركسترا ليعزف سميفونيته الأخيرة ..

رابعًا : ربما يكون صدق الأقاويل حول العلاقة الخفية بين (ياسر) و(حنان) ـ والتى نفاها (ياسر) بنفسه ـ فآثر أن يلعب دور (شبح الأوبرا) المضحى فى سبيل إسعاد الحبيبين ، وهكذا تكون (حنان) هى (كريستين) ويكون (ياسر) هو (راءول) ..

لقد اتخذ المايسترو قراره الذى لم يخل من جنون وتجديف ، وقبل أن ينفذه قام بزيارة شقيقه الأكبر فى الشارع الذى

شهد سنوات عمره الأولى كأنه كان يريد أن يتطهر من خطايا عمره ، وأن ينسى سنوات عذابه الماضية ، وعاد مبكرًا ليبدأ التنفيذ على الفور ..

وقد كان ، لقد جهز كل شيء قبل بداية العرض ـ وهو ما جعله يتأخر عن موعد بدء الحفل ـ دون أن يلحظه أحد من رجال الأمن ، كأنه (شبح أوبرا) حقيقى ..

(إننا نعانى قصورًا أمنيًا رهيبًا هاهنا ...) ..

عند هذا الحد يبرز من طرف الكادر سؤال لابد منه : هل أراد (سليم) إلصاق تهمة قتله بتلميذه (ياسر) ؟!

إن كان الجواب كما تفرضه البديهة (لا) ، فلماذا إذن استعان بشمعة سوداء عثر على مثيلاتها فى غرفته ـ أى (ياسر) ؟!

بل إن السؤال الأمثل هو لماذا كان (ياسر) يضع دستة من هذه الشموع فى غرفته ؟!

فى أى شيء كان يستعملها ياترى ؟!

أسئله محيرة تصب فى بحيرة (لاأدرى) الشهيرة ، ولكن ـ بقليل من إعمال التفكير ـ يمكننا أن نخلص إلى نتيجة منطقية نوعًا ..

ولأطرحها فى سؤال : ألا يتحمل أن يكون (ياسر) على علم مسبق بما انتوى المايسترو الإقدام عليه ليلة الحفل ؟! إن لم يكن قد ساعده فى عملية التنفيذ ؟! (... إن لديه كثيرًا من الأسرار لم يكن يحب أن يبوح بها لأحد ...) !

ولِمَ لا ؟!

هل من الصعوبة تخيل (ياسر) كاتمًا لأسرار أستاذه ؟!

لقد قضى (ياسر) الليلة بجوار أستاذه ذى الرأس المهشمة ، وبدا ثابت الجنان عند القبض عليه ، وعند حوارى معه ، كما أن علاقته بشقيق المايسترو وتقارب حد البنوة ومازلت أشك فى أنه يعرف مكان اختباء (حنان) ..

يالهذا الشاب اللغز !

إنه التصور الأقرب لخيالى على كل حال ، ولست أملك سواه حتى إشعار آخر ..

لقد شارك (ياسر) (سليم) فى التخطيط للجريمة وارتكابها ، وبرغم أن القانون الدنيوى لن يعاقبه بتهمة التواطؤ إذ لايعد الانتحار جريمة قابلة للمحاكمة ، إلا أن القانون الأخروى له حسابات أخرى مختلفة تمام الاختلاف ..

لعل قصة الشمعة السوداء هذه مقصودة حتى يدخل (ياسر) تحت دائرة الضوء خلفًا لأستاذه ، ولعل فى الأمر نوايا وخفايا أخرى ، فمن أين لى أن أعرف خبايا نفوس هؤلاء الفنانين المجانين ؟!!

لقد كتب المايسترو رسالة مبهمة أخفاها داخل عصا قيادة (الأوركسترا) ليكشف بها كل الأمور فى وقت من الأوقات وبطريقة من الطرق اقتبسها من نص كتبه (بتهوفن) نفسه فى ذروة يأسه ، ويستطيع خيالى أن يفترض أن المايسترو قد أراد ترك سيمفونيته ناقصة ـ أسوة بسيمفونية (بتهوفن) التاسعة ـ فضبط توقيت سقوط كشاف الإنارة ـ اعتمادًا على ذؤابة الشمعة المشتعلة ـ ليواكب الجزء الأخير من الفاصل الرابع ، قبل نهاية السيمفونية بقليل ..

هكذا تكتمل الصورة فى مخيلتى جزئيًا ، متغاضية عن سؤال يفرض نفسه فرضًا على الكادر الذى لم يعد فى مقدورى توسيعه أكثر :

وما علاقة السيد (س) بكل هذا ؟!

ولا إجابة لدى إلا :

اسألوه ... إنه هو من يملك أن يخبركم ..

ويستطيع خيالى أن يفترض أنَّ المايسترو قد أراد ترك سيمفونيته ناقصة أسوة بسيمفونية (بتهوفن) التاسعة !!..

إنها إجابة أخرى تصب فى بحيرة (لا أدرى) الشهيرة ، لكنى لا أملك غيرها بكل أسف ..

استغرقت فى كتابة التحقيق حتى أنهكنى السهر ، ها هى ضربة صحفية أخرى فى ثمانى صفحات (فلوسكاب) ، لن تنشر على أقل من ثلاثة أرباع الصفحة ..

وبرغم الإنهاك ، نمت مبتسمة ، محتضنة وسادتى الخالية !

* * *

كنت أسبح فى سماء وردية بثوب سماوى هفهاف ..

والموسيقى تنبعث من مصدر خفى لا أتبينه ..

موسيقى (الكمان) الحالم ..

من أين ؟! لا أدرى ..

إلى أين ؟! لا أدرى ..

حولى العصافير المغردة والسحابات القطنية والنجوم الضاحكة ..

ومع هذا ... كنت حزينة ..

ـ مابك ياصغيرتى ؟!

يرتسم وجهه فى المدى ضخمًا كجبل ، رماديًا كبطن الكهف ..

أمد إليه يدى فتخترق كينونته الشجية ..

ـ وحيدة ... أحتاجك إلى جوارى ..

يأتى صوته الأجش ناعمًا حانيًا رقيقًا ..

ـ ومن قال إننى بعيد عنك ؟! إننى أسكن عقلك وحدك ..

ـ أريد أن أراك ..

مازالت يدى ممدودة نحو طيفه الشجى الأسود ..

ـ الأشباح لا ترى ..

ـ أنت شبح ؟!

ـ شبح متنكر فى هيئة إنسان ..

ـ ومتى أرى الإنسان ؟!

ـ عندما يكف عن كونه شبحًا !

تتوقف الكلمات فوق لسانى ... لا أريد شيئًا فى الدنيا سوى أن أراه ..

أن أكشف حقيقته ... لكن ، كيف ؟!

ـ أى أنك ستبقى فى الظل ؟!

ـ إلى أن يحين الحين ..

تحتشد الدموع فى مقلتى دون أن أنفجر باكية ... أمد نحوه يدى أكثر ... أصرخ فيه :

ـ من تكون ؟!

يصمت قليلاً ، ليقول دون أن تتحرك شفتاه ..

ـ أنا نغمة لم يعزفها أحد ... ضالة فى السرمدية والعدم ..

أواصل صراخى وقد أخذت صورته تتبعد ..

ـ لاتذهب ... انتظر ..

ـ سأعود ..

صورته تواصل الابتعاد ..

ـ لاتذهب ..

موسيقى (الكمان) الحالم ..

ـ سأعود يا (كريستين) ..

و ... ذهب !

★ ★ ★

ـ تستحقين التهنئة ياتلميذتى النجيبة ..

قالتها السيدة (ألفت) وهى تراجع التحقيق المنشور من خلف عويناتها الدقيقة ، فملأنى قولها زهوًا وفخرًا ..

ـ هذا من دواعى سرورى ياسيدتى ..

ألقت بنسخة الصحيفة جانبًا ، وابتسمت وهى تقول :

ـ السيد (س) هذا طفرة فى الصحافة المصرية بكل المقاييس ..

ـ هذا يزيد من دواعى سرورى ..

قلتها فى صدق وقد اقشعر بدنى لسبب لاأدريه ، أهى لذة النجاح وحدها ؟!

خلعت السيدة (ألفت) عويناتها وهى تواصل تحليلها العملى كأنها تفكر بصوت عال :

ـ ردود الفعل حوله مبشرة للغاية ، لقد كنت ذكية حقًا إذ اخترت موضوعًا أثار اهتمام الجماهير كمصرع المايسترو (سليم حجاب) ..

إنها تختبرنى ، لاأحتاج لكثير من الذكاء حتى أكتشف هذا ..

ـ أنا لم أختر شيئًا ، هو من يختار كل شيء ، وما أنا إلا واسطة بينه وبين القراء ..

اتسعت ابتسامتها وهى تقول :

ـ أصدقك القول أننى كنت متخوفة للغاية من أن يفقد مصداقيته عندهم ..

هززت رأسى مؤيدة وقلت فى لهجة تلميح :

ـ وكان رأيك أنه يصلح أكثر لسلسلة بوليسية أنيقة ..

ضحكت هذه المرة وقالت مغتبطة :

ـ أصدقك القول مرة أخرى إنها فكرة رائعة ، لو كنت ناشرة للكتب لما توانيت عن تشجيعك عليها ..

شردت للحظة ، أنت لاتعلمين ياسيدة (ألفت) أن الفكرة تلح علىّ بين حين وآخر ..

وإننى أجدها ـ أنا الأخرى ـ فكرة متميزة قد أنفذها يومًا ..

متى ؟! لا أدرى ..

لكن اسم السلسلة يضىء فى عقلى كأضواء الإعلانات النيونية ..

(مغامرت س) ..

لأنتظر حتى يحقق السيد (س) أولاً شهرة بين قراء الصحيفة ولنر بعدها ..

انطلقت السيدة (ألفت) تلقى فى آذانى بنصائح ذهبية ستفيدنى حتمًا فى عالم الصحافة ، وبين الفينة والفينة كنت أرنو بعينى نحو التحقيق المنشور على الجريدة الملقاة ..

لقد رفع من قيمة أسهمى فى بورصة القراء كثيرًا ، وبرغم الفتور المشوب بالانزعاج الذى قابل به الرأى العلم ـ فيما بعد ـ نبأ زواج (ياسر) و(حنان) ، وبرغم جهل الكثيرين بنبأ موت موسيقى ضرير ومجهول عاش وقضى بين جنبات شارع (محمد على) تحت تأثير سرطان (البروستاتا) ، إلا أنه قد حقق المنشود من ورائه ..

لقد أسهم فى كشف الحقيقة ، أو على الأقل جزء منها ..

وهذا ما وهب السيد (س) عمره من أجله ..

وفى سبيله ..

★ ★ ★

١٠ ـ ذهب مع الريح ..

اشتد عصف رياح الخماسين المحملة بالتراب والقاذورات ، واستحالت الرؤية ضربًا من ضروب العبث ..

كل شيء في هذه الأجواء يطير ، الملابس والشعور وأوراق الكراسات والكتب المدرسية وحتى المناظير الطبية من فوق الأنوف ..

ـ تبًا ... لقد تلف شعرى !

ـ منظارى ... لقد تحطم ، سوف تعنفنى أمى على ذلك بقسوة ..

ـ كتاب النصوص ... أين هو ؟! لا أكاد أرى على مسافة خطوتين أمامى ..

علا الهرج بين الفتيات العائدات من المدرسة وكل منهن تمسك بيد زميلتها حتى لا يضعن فى زحام ذرات الغبار ..

ـ سأستحم فور وصولى للمنزل ..

ـ ها هى ذى دارنا ، لا أكاد ألمح المدخل ... سلام يافتيات ..

وهرولت صاحبة العبارة كأنها وجدت طوق النجاة فى خضم بحر متلاطم الأمواج ، وهى تحاول الثبات فى وجه الريح العاصفة بشدة ، وتابعتها عينان حاسدتان حتى اختفت لتقول صاحبتهما بنبرة غل ذكورى أحبش :

ـ يالنذالة ... إنها لم تكلف نفسها عناء دعوتنا لمنزلها حتى تنتهى العاصفة ..

سألت واحدة ذات صوت رفيع :

ـ وهل يعلم أحد متى ستنتهى ؟! إنها معذورة ..

قالت فتاة جميلة ، لو كنا نستطيع أن نصف الحية بالجمال :

ـ لا أعتقد أن العاصفة ستطول ..

قهقهت إحداهن قائلة :

ـ إن (نسمة) تأمل أن تنتهى الليلة حتى تلحق بالحفل الموسيقى الذى تقيمه الوزارة غدًا للفائزين فى مسابقة عزف (الكمان) ..

قهقهت أخرى وقالت :

- برغم أنها لم تفز بأى من المراكز الأولى ..

- سأعرف كيف أجعلهم يندمون على هذا ..

قالتها (نسمة) ، لتتعالى قهقهة صاحبة الصوت الذكورى الأجش ثم تقول :

- هل تذكرن يا فتيات ما حدث للفتاة المسكينة المنطوية على نفسها منذ أسابيع عندما أرادت تعلم عزف (الكمان) على يد مدرس الموسيقى الجديد ؟!

- وهل هذا ينسى ؟!

- المسكينة ، ظلت تبكى أسبوعًا متصلاً حتى ظهرت المكيدة ..

- الأدهى أنهم لم يعرفوا من كادها حتى الآن ..

التقطت (نسمة) طرف الحديث لتقول فى ثقة :

- هنا تمكن الحرفية فى صنع المقالب !

- وماذا تنوين أن تفعلى غدًا ؟! هل ستضعى الفئران فى حقائب الآلات الموسيقية ؟

- كلا ... حيلة قديمة وغير فعالة ..

- ستقطعين أوتار الآلات كلها ؟!

- كلا ... كلا ... كل هذا بال ومستهلك ..

وبرقت عيناها - لم تلمح أيهَن هذا فى بحر التراب الأعظم - ثم قالت :

- سيكون مقلبًا ساخنًا من الدرجة الأولى ..

- كان بودّى أن أسمع تفاصيله ، لكن هاهو ذا المنزل .. إلى اللقاء غدًا ..

وهرولت ذات الصوت الرفيع نحو مدخل البناية التى تسكن فيها ، ورويدًا رويدًا بدأ عدد الفتيات ينخفض حتى أصبحت (نسمة) - لسوء حظها - وحيدة ..

إن منزلها - لسوء حظها مرة أخرى - هو أبعد منزل عن المدرسة ..

لكنها لاتهتم ، إن من هم فى مثل شخصيتها القيادية المتسلطة لايلقين بالاً لهذه الصغائر ، ويترفعون عن إظهار خوفهم بمنتهى الحماقة ..

سارت فى بحر التراب الأعظم محاولة التماسك وعقلها يعمل جاهدًا لإيجاد المكيدة المناسبة لحفل الغد ، لقد تجاهل

الأوغاد موهبتها فى عزف (الكمان) ، وهى ستعلمهم بطريقة عملية أنها الأحق ..

كيف يا (نسمة) ؟! اعصرى أفكارك السوداء الشيطانية ولن تخذلك قريحتك (السايكوباتية) حتمًا ..

ها هو ذا مدخل البناية التى تسكنينها قد تراءى لعينيك الثعبانيتين ، أرجئى التفكير حتى تضمك جدران غرفتك ، هيا أسرعى نحو ..

لحظة .. ما هذه الذراع التى أوقفتك بغتة ؟! وما هذا الذى التف حول رقبتك فى غلظة ؟! أهى ذراع أخرى ؟!

ـ من ؟! اتركنى ..

كادت تصرخ هلعًا أطبقت على فمها لتمنع الصرخة فاحتبس الصراخ فى حنجرتها ، وسمعت الهمس الذى انساب إلى أذنيها :

ـ إذا حاولت التحرش بها ثانية ، فلن يكون هذا أقل ما تصادفينه ..

من هذا ؟! ماذا يريد ومن يقصد ؟! و ...

سقطت على الأرض باكية فجأة .. لقد تركها صاحب الصوت !

استغرقت عدة لحظات لإدراك الموقف ، رفعت ناظريها متفرسة فيما حولها فلم تر إلا الغبار المعلق فى تيارات الهواء العاصفة ، لقد ذهب صاحب الصوت إذن .. ذهب مع الريح !

نهضت بصعوبة ، لملمت حاجياتها المتناثرة فوق الأرض واتجهت نحو مدخل البناية دون أن تستطيع التوقف عن البكاء الحار ..

وأمام باب الشقة تسمرت محدقة فى قصاصة ورقية محشورة فى جانب الباب ، وارتعدت عندما رأت ما هو مدون فوقها دون أن تدرى لذلك سببًا ، فلم يكن مكتوبًا عليها سوى حرف واحد ..

(س) !

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب
سلة الروايات
فى كل رواية متعة دائمة !!

محمد سليمان عبد المالك

مغامرات "س"

دقات الفزع

حفل أوركسترالى فى دار (الأوبرا) لمايسترو شهير يقود عزف سيمفونيته الجديدة ...

أى غرابة فى هذا ؟!

السيد (س) كان هناك - و(نسرين الجبالى) أيضًا - وسيتوليان إخباركم بكل ما حدث ...

وبصراحة ، لقد كان ما حدث غريبًا إلى حد لا يصدق ...!

مطابع
سفنكس للطباعة

الثمن فى مصر ٢٠٠ مليم
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم